كأن شيئا لم يكن

-عبد الرحمن بومدين-

رواية: كأن شيئا لم يكن
المؤلف: عبد الرحمن بومدين

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 27869 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-6793-02-6
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

كأن شيئا لم يكن

(رواية)

عبد الرحمن بومدين

تحيةً خاصةً من أحد الفاشلين إلى جميع الناجحين.

إهداء خاص...

إلى...

– أمي الغاليةِ للغاية على قلبي، وصاحبةِ فضلِ كلِّ شيءٍ لبناء وتقوية تلك الشخصية التي أمامكم.

– أبي الفاضلِ ملك القلوب، أتمنى من الله أن يجعل مني سندًا تفتخر به طيلةَ حياتك.

– إخوتي الصغار، أولِ المتحملين والعالمين بكلِّ شيءٍ بتلك الرواية.

– رجالِ الكتيبة، إخوتي وأصدقائي وأوائلِ الداعمين في كلِّ شيء.

– إخوتي بالجامعة جميعهم، متحملينَ ذلك المجنونَ المتحدث لكم.

– أهلِ منتدى عمرو خالد، أولِ الدافعين بي إلى تلك الساحة.

– فريقِ (صرخة فزع) بجميعِ أعضائه وكتابه العظماء.

إهداء خاص جدا

إلى سيدة قلبي الأبدية

إلى الجميلة في كل الأزمان وكل الأماكن

إلى التي أهاجر إليها مهما طالت المسافات

وأعود بالحب إليها مهما طال الابتعاد

إلى هويتي ومكاني وسكوني، ومن يتقبلي بكل عيوبي

إلى تلك العزيزة التي وجب ألا أنساها

وكأن الله ختم على قلبي بحبها، ولا شيء آخر دون ذلك!

«أكتب لأنني أحب الكتابةَ، وأحب الكتابةَ لأن الحياة تستوقفني، تدهشني، تشغلني، تستوعبني، تربكني، تخيفني، و أنا مولعةٌ بها»

–الكاتبة: رضوى عاشور–

«باكتب عشان

ماعرفتش أفتح عيني بس المرة دي

وكأن قرص الشمس فضل الامتعاض

وعشان مفيش ف إيديا قدرة الاعتراض...

باكتب عشان

مابقاش يجوزوقت أما أقابلك أحضنك

بدراعي لكن رمشي حضنك بافتراض»

–الشاعر: أحمد مصطفى–

كأن شيئا
لم يكن

مستشفى دار الفؤاد/ القاهرة

الساعة السادسة مساءً، غرفة 202...

هدوءٌ تام في ممر الطابق، هدوء معتادٌ عليه في تلك المستشفى حرصًا على راحة المريض، قد تنزعج قليلا من أصواتِ الكعب العالي الذي ترتديه الممرضاتُ والزوار، فتسمعه يدق على أرضية المستشفى الناعمة، ولكنك لن تقيد حريةَ عري السيقان والكعب العالي اللذين يدقان قلبك بنعومةٍ شديدة عند النظر إليهما.

في الطابق الثاني في ممرٍّ طويل يبتعد عن المصعد قليلا تصلُ إلى الغرفة القبل الأخيرة الموجودة به: غرفة 202، وممرضة تتجه ناحيتها تحمل بعضَ الطعام على النقال المعدني الذي لا يُخرجُ أي رائحةٍ بسبب برودة أكل المستشفيات واختفاء أيِّ طعمٍ أو رائحة منه وكأن الطبيبَ أمرك بزيادة نسبةِ المعادن في جسدك، فقررت أن تأكل قطعًا معدنية حقًّا.

تفتح الباب فترى الغرفة واسعةً ولها شرفةٌ تطل منها على مدينة 6 أكتوبر، قد ترى (مول العرب) وزحامَ سياراته من تلك الشرفة، أما الغرفة ففي منتصفها سريرٌ ينام عليه مريضٌ شاب في بداية العقد الثالث من عمره مكسورَ اليد والقدم ووجهه غير خالٍ من بعض الجروح، وصدره مليء بالشروخ والكسور في ضلوعه، وكأنه ضحية دبٍّ قطبي عاقبه لأنه اقتربَ من سمك البحر السعيد المتجمد.

وعلى كراسي الاستقبال يجلس شخصان آخران يطالعان الكثيرَ من الأوراق وكأنهما يتحدثان في شيءٍ مهمٍّ؛ دعا ذلك المتهشمَ إلى التركيز قليلا معهما رغم حالته الصحية، هكذا قد أستطيع وصفَ المكان لكم، ولكن لأكون أكثرَ دقةً، فذلك المريض الهائم على هذا السرير في هلاكٍ وتهشم، هذا المريض آخذُ السمكِ المتجمد السعيد وضحية الدب الهمجي القاتل هو أنا!

هائمًا على ظهري أنظر أمامي إلى الشخصين الجالسين على كراسي الاستقبال، أحدهما كان صديقي العزيز (يوسف)، أعرفه منذ حوالي 17 عاما وبالمناسبة نحن بنفس العمر تقريبا، إن جاز القول فهو فعلا أخ لي لم تلده أمي، يجلس أمامي بملابسهِ الكاجوال وذلك الشورت الذي يكشف عن سيقانه ذات المنظر البشع التي لا تساوي أنوثةَ سيقان الممرضات التي أتلصصُ عليها ذهابا وإيابا.

أما الآخر فكان صديقي والمحامي الخاص بي (بيتر)، يجلس ببذلته حاملا السموكن الرماديةَ وشعره الأبيض الذي شابَ قبل ميعاده بسبب كلية الحقوق ومواد الحقوق، والقانون الدولي والمنظمات التي قد ينحني ظهرُكَ من حمل كل تلك الكتب في مقابل الحصول على درجة النجاحِ بصعوبةٍ شديدة، وكأن بيعَ شرفك في سوق الرقيق والجواري أسهلُ من النجاح بها... يطلع على بعض الأوراق مرتديا نظارتَهُ التي لا يرتديها إلا عند القراءة وحسب.

انتظرت حتى وضعت الممرضة الطعامَ وراقبتها تخرج وأنا أنظر لبيتر في اهتمامٍ ممزوج ببعض الرعب والخوف، وكأنني أنتظر كارثةً أخرى ونيزكًا آخر يقترب ليدمرَ حياتي أنا من بين سبعةِ بلايينَ من البشر على

هذا الكوكب، حتى خرجت الممرضةُ وأغلفت البابَ خلفها، ثم نظرت إلى بيتر وأنا أقول:

– يعني إيه يا بيتر؟ يعني أجهز نفسي للسجن؟

قلتها بفزعٍ وخوف، فنظرَ لي بيتر وهو يحاول أن يرتبَ كلامه منعًا لتدهور حالتي الصحية.

– يابني افهم! دور النشر والجرنال وشركات الإنتاج عمرهم ماهيصبروا عليك، إنت ماضي عقود، والعقود بتطالب يا بالعمل يا بالشرط الجزائي يا الحبس، وطبعا فلوسك كلها ضاعت في العربية الزفت اللي إنت جبتها، وورق تقرير البنك بيقول إن رصيدك كمان ضاع ف علاج المستشفى بتوكيل كنت عامله لأختك كانت بتسحب بيه الفلوس، يبقى مفيش غير السجن.

– وهو يعني كان ذنبي يا بيتر؟

قلتها فأسرعَ يوسف مقاطعا بسؤاله لبيتر:

– طيب بيتر، الموضوع أكيد ليه حل؟

– الموضوع معقَّد يا يوسف، التقرير الطبي لحالته بيقول إنه مش هيقدر يشتغل بإيده بحالتها الطبيعية إلا بعد شهرين ما بين جبس وما بين علاج طبيعي، غير رجله اليمين المكسورة دي واللي هتقعد شهر ونص ف الجبس لأن العظم شبه متهشَّم والعقود بتنص على إنه هيسلم كل الشغل اللي عليه ف ميعاد

أقصاه آخر السنادي، السنادي فاضل فيها شهر ونص، أقنعني هيشتغل إزاي، دا لو معلقينله الفياجرا ومشروبات طاقة العالم كله محاليل مش هيقدر يعمل حاجة.

بعض السكوت والهدوء سادَ المكان، فقام بيتر من مكانه يحمل حقيبته ويضع الأوراقَ خلالها وهو يقول:

– أنا كان لازم أقولك عشان لو هتلحق تتصرف ف الشرط الجزائي، مكنتش أقدر أخبي عليك أكتر من كده، إنت قعدت شهرين في الغيبوبة، وفقت، ورغم كده الجسم كان متهشم، والحمد لله اللي قومك تاني لينا وبعدك عن مشارف الموت.

نظرت له نظرة احتقارٍ ثم نظرت إلى يوسف أوجه له الكلام:

– بص يا يوسف، من ساعة ما عرفته و أنا بقولك دا تربي مش محامي، مرةً يقولي هتتسجن ودلوقتي بيقولي مشارف الموت، اتكل ع الله يا بيتر! اتكل ع الله!

فضحك يوسف وبيتر وأشار يوسف لي بهمسٍ أنه سيوصله إلى باب المشفى وسيعود مجددًا، فهززت رأسي بالموافقة ليوسف وخرجا معًا وأغلقا الباب.

جلست وأنا أحاول استيعابَ كل ما يحدث متذكرا جملةً شهيرة كان ينطقها أبي رحمه الله دائما (الدنيا إذا دنت أودنت، وإذا كست أوكست).

لم يكن ذنبي في شيءٍ سوى أنني تمنيت تحقيقَ مستقبلي بشكل مناسب لموهبةٍ قالوا عنها أنها ستصبحُ ذات مستقبلٍ بديع في يوم ما.

كنت أعمل كصحفيٍّ في إحدى الصحف الخاصة في بابٍ لكتابة مقالات من نوع السردِ النثري الذي يحلل النفس، ويشرح فيها ويشرح مواقفَ لها عن طريق تجارِبَ متعددةٍ أسمعها أو أشعر بها أو ربما أمر بها.

كان الإعجاب دوما بما أكتبه على صفحاتِ التواصل الاجتماعي، مع تعليقات مقالات الجريدة مبرّرًا لاقتراح الأصدقاء كتابة رواية أو عمل أدبي يُنْسَب لي وخصوصا بعد تحسن لغتي وطريقة سردي وكتابتي بشكل ملحوظٍ في كل مقالٍ نثري عن السابق له.

ورغم كل الخوف والتراجعات إلا أنني وافقت في النهاية وخصوصًا بعدما وصلت لفكرةٍ جديدة ومثيرة، كتبت الروايةَ خلال عامٍ ونشرتها بعد ذلك على نفقتي الخاصة، ورغم أنني توقعت أن أصبحَ نجيب محفوظ القادم إلا أنها نجحت نجاحًا بسيطًا على مستوى كاتبٍ لم يبدأ بعد، وكأنني بدأت أرى تجارِبَ أكثرَ، فعدت للنثر مرة أخرى، فكتبت فيه أكثرَ وأكثرَ، وربما زادت شهرتي به أكثر من خلال صفحات التواصل الاجتماعي، فعدت مرةً أخرى برواية أخرى، ونشرتها ولكن مع إحدى دور النشر ذات المستوى المحترم والمرتفع بعدما اقتنعتْ بموهبتي، ووصلت لإصدار الطبعة رقم 40 من تلك الرواية.

ومن هنا بدأ كلُّ شيءٍ، وانهالت عليَّ كل العروض، بكل الأشكال التي يتخيلها الجميع، من دورِ نشرٍ، إلى صحفٍ، إلى شركات إنتاجٍ تود مني كتابة قصصِ بعض الأفلام لها، بمقدمةٍ ووسطٍ ونهاية، وأترك لهم هم كتابة سيناريو الفيلم، وكأنني فتحت باب خزائنِ كهف علي بابا بجملة (افتح يا سمسم) من كلِّ العروض وكل الأموال.

ولكن اعترض طريقي الحظُّ العاثر، والقدر الذي يصرُّ دوما أن يجعل مني مسخةَ القرن الواحد والعشرين، وكأنني ابن عاهرةٍ يخاف أن يرفعَ صوته عندما يتلقى خبرا سعيدا حتى لا يسمعه جيرانه، فيخرجون ليصيحوا فيه «أخفض صوتك يا ابن العاهرة كي ننام، ماتت أمك وتركتك لنا لتزعجنا، فلتحتفظ بعارك وحدك ولتصمت»، وكأن ذنبه أنه حلم بالسعادة وحسب، وكأنه يحاسب دوما على أشياءٍ لم يكن له ذنب بها.

عليَّ الاعتراف أيضا أنني طمعتُ قليلا في كل شيءٍ، ونسيت أنَّ من أراد كل شيءٍ خسرَ كل شيءٍ، وكأنني كنت ذلك الحمارَ الذي ذهب إلى السوق طامعا في قرنين يركبُهما فوقَ رأسه فلمْ يأخذِ القرنَ وعاد من دون أذنيه أصلا.

وقعت كل تلك العقودِ بشروطها الجزائية وبشرطِ تسليم كل الأعمال قبل نهايةِ ذلك العام، واستلمتُ النقود مقدَّما من العروضِ والعقود واشتريت بها كلَّ ما أود، اشتريت ملابسَ جديدةً وغيرت ديكوراتِ منزلي عموما، ثم اشتريت سيارة أحلامي ذات موديل العام والتحديثات الجديدة كلها، ومن هنا حصلت على كلِّ شيء، ومن هنا انتهى كل شيءٍ.

في إحدى الأيام وأنا أقود سيارتي ليلا بسرعةٍ جنونية على طريق الشيخ زايد أستمع إلى موسيقى الجاز كعادتي، وأغني مع ألحانها رأيت أضواء الطريق تمرُّ بسرعة شديدة، وعداد سرعتي يزداد حتى كاد ينكسر ومن هنا انقلبت بي السيارة، أصوات حك السيارة بالطريق، صرخات النساء، تشهدات الجميع، وأحد الأصوات ينادي اطلبوا الإسعاف، ومحاولات لفتح السيارة لإخراجي، رأيت الدنيا تظلم بي وكأنها

نهاية إحدى الأفلام القديمة، ولكن دون تقبيل البطل للبطلة، ربما كان تقبيلي أنا وحك وجهي لطريق الشيخ زايد، وكأن كل صوتٍ يفقد قوته، وكل ضوءٍ يفقد بريقه، وانطفأ كل شيءٍ كأحاسيسي التي انطفأت منذ زمن بعيد.

وعندما استيقظت من هذا علمتُ أنني كنت في غيبوبةٍ شاء الله أن ينقذني منها، وكأن شيئًا لم يكنْ، وكأن الهدوءَ المفعَم بعدم انتظار شيءٍ جديدٍ عاد مرةً أخرى، ويبدو أنه سيطول.

وها أنا ذا أمام أعينكم، تقرأون حكايتي، ها أنا ذلك الكاتب الأحمقُ الذي قد يمثل خلال شهرٍ دورَ العظيم (عادل أدهم) في فيلم (العملاق)، ذلك الكاتب الذي انتهى به الأمر سجينًا، ولم يهدأ إلى أن وجد سجينا واحدا وسطَ كل هؤلاء يعرفه ويقرأ كلماته، ها أنا ذا ذلك الفأرُ الذي سيقضي عمرَه في أحد الأقفاص في مختبرٍ حتى ينتهي تأثير التجربة السابقة عليه فيعودَ بضعفه وقلة حيلته لتجربةٍ جديدة فيأخذَ منها ذلك التنبيه الذي قد يجعل لحياته ميعاد انتهاءٍ مقتربٍ ولا تنتهي، فيعود ليستريحَ ويكرر تلك التجربة ويحصل على نفس التنبيه حتى تستمرَّ حياته كمكتبة من نياشينَ وأوسمةٍ، كأفضل حاصدٍ للبؤس والشقاء بين أبناء جيله.

أنا ذلك البائسُ اليائس، أنا ذلك الكاتبُ الضائع، أنا الذي ما بين ليلةٍ وضحاها أصبح بقايا علبةِ سردينٍ عفنة لن يمسَّها أحدٌ بعد بقائها خارج غلافها وكأنها منتهية الصلاحية، مثلي تماما وإن جاز لي الأمرُ فسأقول عن نفسي أني:

«كاتبٌ منتهي الصلاحية»

أنا،

ياسين مدين.

***

نفس الغرفة/ بعد عودة يوسف

دخلَ يوسفُ من باب الغرفة مبتسمًا في وجهي ليهوّن على كلِّ شيءٍ وكأنه النعمة الوحيدة التي يرزقني الله بها دوما بعد وفاةِ الأهل، وحبٍّ فاشلٍ بات كسكين يقطع قلبي كلما رأيتُ ذكرياته كشريطِ فيلم في كاميرا يمر أمامَ عينيَّ، وضياع الآمال التي تغيبُ عنا كلما يأست... يبقى الصديق نعمةً تهوّن عليك وتدفعُك وتسندك فتصبحُ الأعظم بفضله.

اقترب ثم جلس بجانبي على مقدمة السرير محاولًا تهوين كل ما يحدث لي، كان صديقي الصدوقَ والأقرب، وكان المهوّنَ والداعم في كل شيءٍ، ربما كان أحدَ أهم الأسباب لكتاباتي للرواية هو تشجيعُه لي، برغم أنه لا يحب القراءة إطلاقا.

نظرَ إليَّ وقال:

– هون عليك يا يس، كل حاجة هتتظبط إن شاء الله.

– دا من منطلَق إن أنا هضرب الأرض هتْطَّلعْ فلوس، ولا هاخد حبوب طاقة هترجعني كويس وأرجع أكتب؟!

قلتها له وكأني تناسيت كل مشاعري نحوه وتذكرتُ فقط الواقعَ المرير الذي حل بي.

– يا صاحبي أكيد ليها حل والله، إهدا.

نظرت إليه وأنا أفكر ماذا قد أفعل.

وفجأةً فتحتِ البابَ يد أنثى كنت أعرفها جيدًا، ربما لم أعلم أحدًا مثلها ولن أعلم؛ فقد كانت أقرب الأقربين، كانت أختي (ياسمين) بلون جلدها الأبيض وعينيها الواسعتين وحجابها الذي يخفي لون شعرها الذي أعلم أنه بني اللون، دخلت وهي وابنتها (جنا) بفستانها الأبيض المنقَّط الجميل الذي طالما عشقتُ رؤيته عليها، وعشقتها هي شخصيًّا، فأصبحت أدللها وأربيها وكأنها ابنتي أنا وليست ابنة ياسمين.

كانت (جنا) في الصف الأول الإعدادي، وكانت (ياسمين) أكبرَ مني بـ7 سنوات، فأنا في عمر الثلاثين، وهي في السابعة والثلاثين.

اقتحمت الغرفةَ ثم اقتربت مني وقبلتني في رأسي، ورمتِ السلام على يوسف، وقبلت جنا خدي وجلستْ بجانبي على السرير تحملُ كتابا يبدو أنه كتابُ اللغة العربية التي لا تحب أن تقرأه إلا معي.

جلست ياسمين على الكرسي القريب من السريرِ وابتسمت وقالت:

– قابلت بيترتحت وهو ماشي وقاللي حالتك النفسية لما عرفت.

نظرت لها في هدوء وقلت:

– إنتي كنت عارفة كل دا؟

– أنا كنت عارفة الموضوع من و أنت ف الغيبوبة، بس كنت مستنياك تبقي تمام.

– الموضوع كارثة يا ياسمين، أنا كده هيضيع مستقبلي. مبقاش ف طريقي غير السجن.

– متقولش كده، أكيد ليها حل، أنا بكرة هاخد سامي جوزي ونروح نتفاهم معاهم يمكن نوصل لحل وسط، سيب باب الأمل مفتوح، وقول يا رب.

قالتها وهي تمسك يدي، فربطتُ على يدها وابتسمتُ في وجهها فقطع حديثنا يوسف الذي قال:

– يس، أنا هروح أنا بقا، وبكرة إن شاء الله هكون عندك بعد الشغل، متقلقش وكل اللي جاي خير.

فابتسمت له، وسلم علينا جميعا ثم توجه إلى باب الغرفة وخرج، فاقتربت جنا مني حاملةً الكتاب في يدها وهي مبتسمة وتقول:

– مش هترجع تشرحلي عربي بقا يا ياسو؟ بقالنا كتير مقعدناش مع بعض علشان إنت كنت تعبان!

كم كنت أعشقها حين تدللني، وقد اشتقت لهذا التدليل منذ فترة، نظرت لها ثم ابتسمت وسألتها:

– عايزة درس إيه؟

– في درس هنا عن طه حسين وازاي وهو مبيشوفش قدر يحقق شخصيته وكينونته اللي وصل بيها لأعلى المراكز.

– شخصيته وكينونته وأعلى المراكز، في طفلة تقول كينونته، دانا إللي كاتب مبقولهاش، يعني إيه كينونته أصلا؟

نظرت لها بتعجب وأنا أضحك في وجهها، فقالت:

– معرفش هي ماما اللي قالتلي كده وهي بتشرحلي عشان كده مفهمتش.

نظرت لياسمين بنظرة التعجب الشديد...

– كينونته؟! بتقولي لطفلة كينونته؟! ومستغربة البت مبتفهمش منك ليه! ورحمة أبوكي إنتي ما عارفة كينونته إيه! إنتي تلاقيكي سمعتيها من أبوكي وهو بيذاكرلك زمان ومفهمتيهاش وبتطلعيه ع البنت.

فضحكت ياسمين مني ثم أخذت الكتاب من جنا وشرعت بالبداية في قراءة الدرس:

(كان طه حسين يسير دوما مستندًا على السياج وهو صغيرٌ حتى يعلمَ منه الطريق، بل وكان مثالا للقوةِ والنجاح، فكان يشرع بتأليف كتبه بنفسه ويمليها على أحدِ تلاميذه أو أصدقائه؛ فيكتبها بنفسه وتُنشَر، ولكن العقلَ المدبر لكل الكلام كان طه كأنه كان يكملُ عجزَه دون خوفٍ أو تردد).

لمعت فكرة في رأسي، بدأت أشعرُ أنها تنير كأفلام جيمي نيوترون وتيمي ترنر، وكأنها رسالةُ الله الدائمة التي يرسلُها لنا ليدعمنا وحسب، وهو الخير ذاته.

– ياسمين!

ناديتها وعيناي تلمع.

– إيه يابني.

– خدي بنتك وامشي.

– نعم؟

قالتها في تعجب، فقلت لها:

– خدي بنتك يالا بسرعة و ابعتيلي يوسف حالا.

ثم اتجهت بنظري إلى جنا، وقلت لها:

– جنا حبيبتي، بكرة هشرحهولك لأني عايز عمو يوسف حالا.

– طب يابني فهمني في إيه.

قالتها ياسمين فنظرت لها بنظرات الانتصار وقلت:

– لقيت الحل.

***

الغرفة/ بعد رحيل ياسمين وعودة يوسف

– يعني إيه يابني؟ أنا مش فاهم حاجة!

نظرت له، وبهدوء شديد سحبت شهيقي وقلت له:

– يعني إنت هتبقى ذراعي اللي مبعرفش أستخدمه لحد ما إيدي تخف.

نظر لي وتكلم بسرعة كعادته وقال:

– إنت عايزني أنا أكتب، يا يس أنا عمري ماقريتلك أصلا، وبعدين أنا من إمتا بكتب حاجة أصلا، أنا آخر مرة مسكت قلم كنت و أنا بستلم إيصال قسط التكييف. دانا حتى ممضتلكش على فلوس الحساب...ات بتا...ع...ت المستش...في.

– بتتلجلج ف الكلام، ووقعت بلسانك يا واطي، عشان كده ياسمين اللي جت دفعتها.

– يا عم منكنش معايا فلوس، والفيزا راحت ف قسط التكيف.

– الله يلعن أبو التكييف اللي تاعبك دا، يا حبيبي إفهم، إنت هتكتب زي مابتكتب ف الشات بالظبط، مش إنت غاوي فيسبوك وعاملي فيها بيل جيتس.

– مين بيل جيتس دا؟!

نظرت له نظرة احتقار ثم أكملت حديثي:

– ما علينا، إنت زي مابتكتب ف الشات اكتب، الفرق بس إني هموت عليك، ساعدني يا يوسف، أنا مقداميش غير إني أعتمد عليك.

– رقبتي يا عم متقلقش، بس إنت ناوي تكتب عن إيه؟

نظرت له وكأنه وصل معي لنقطة التقاء، سؤاله مهم، ماذا سأكتب؟

– هي دي المشكلة، الحادثة مسحت من دماغي كل الأفكار، وكأن كل حادثة ف حياتي شريط سينما بيمسح كل حاجة مخططلها ومبيفكرنيش غير بالجرح والهم اللي أنا فيه بس.

قلتها، فنظر لي يوسف ثم قال:

– اكتب عن حوادث السيارات.

– هو أنا بكتب موضوع تعبير، دي قصة يا يوسف.

– خد فيلم إنجليزي وبرازيلي قديم، ومصره وأهو بقى قصة.

– دا رخص يا يوسف، وبعدين عايز حاجة جديدة مش تقليدية.

فكر يوسف قليلا، ثم نظر وقال:

– إيه رأيك لو تعمل حاجة عن الصداقة؟

– فيلم هندي!

– عن الحب؟

– فيلم خيال علمي!

– عن الكباريهات؟

– فيلم تجاري!

– عن الصعايدة؟

– فيلم مهروس!

– عن البلطجية؟

– فيلم محمد رمضان!

– عن السباكين؟

– فيلم سكس!

– إنت بتقول إيه؟

– يا عم إنت اللي بتقول أي حاجة وخلاص.

– إنت على طول كده مهبطني يا يس.

– يابني إفهم، بقولك عايز أفكار تتكتب قصص، يعني أفكار محترمة لعقول محترمة، في عقول محترمة هتقرا، ودور نشر محترمة هتنشر، وجرايد محترمة هتنشر، لازم تبقى كل

الصياغة محترمة.

– ولما هي محترمة جبتني أنا ليه؟

نظرت له نظرة احتقار أخرى، فنظر لي هو وأكمل حديثه معتذرا:

– طب خلاص، أنا آسف أنا بس كنت بحاول أشوف حل.

وفجأةً اقتحم جلستنا صوت فتح الباب، وصوت طرقات كعبِ حذاء عالٍ على أرض الغرفة، كانت هي بجمالها الذي يسر قلبي كلما رأيتها وكأنها نغمات مقطوعات لشوبان على مفاتيح البيانو الثمانية والثمانين، فتتراقص أذنُك وتتلاعب أحاسيسك مع جمالِها وطرقات قدميها.

كانت طبيبتي المعالجة، أعلمها من صوت طرقاتِها جيدا، بجسدها اليافع وعينيها الواسعتين وشعرِها الأسودِ اللامع ولونها الأبيضِ الجميل، تدخل مرتديةً البالطو فوق ملابسها ذات اللون الأحمر...

من معاشرتي لها شهرين في المستشفى تأكدتُ من عشقها للون الأحمر، لم أعرفِ الحب مطلقًا رغم أنني كتبت عنه حتى وإن مررت بتجارِبَ سابقة، ولكنها كانت بعيدةً عن الحب دومًا بسبب أفعال الطرف الآخر، ولذلك كنت أفتقد الحبَّ دائما...

ولكن من معاشرتي له فإنه يبدو كسيفٍ؛ إما يدافع عن الروح وإما يشقها نصفين، حتى قابلتها.

يبدو أنني وقعت في الحب عن طرقاتها ونظراتها وجمالها البديع وكأنها لا تشبه النساءَ، كغيمات السماء تتشابه ولكن تبقي غيمةً واحدة

منها بشكلٍ مختلف تلفتُ نظرَك فتلتقط لها آلاف الصور وتبيت في عشقها، كم أعشق الشخصَ البسيط في كل شيء الذي لا يكون معقدا في شيء إلا في كيفية تسهيل بساطته فيصبح هينا لينا على الجميع.

دخلت مبتسمةً كعادتها وقالت:

– يا ترى الكاتب بتاعنا عامل إيه النهارده؟

ابتسمت لها وقلت ضاحكا:

– الكاتب لازم يرجع يكتب وإلا هيتسجن.

– يتسجن! يتسجن إزاي؟

قالتها بتغير ملامح وجهها من الابتسامة إلى الذعر فقلت لها:

– لا دي حكاية طويلة هحكيهالك بعدين، المهم بس هاخد رأيك ف حاجة، أكتب ف إيه؟

سألتها وأنا أتطلع لعينيها الجميلتين، وكأنني أعلم أنهما صندوق أسرار سأجد فيه إجاباتي، وكأنها:

– إنت كنت قايل ف رو ايتك إن الكتابة شغف؛ لو مستغلتوش ف كتابة اللي حاسس بيه، يبقى الموضوع ملوش لزمة.

لمعت عيناي من تذكرها لمقطع من روايتي، كم كان قلبي يرقص من السعادة، ابتسمت لها وقلت:

– بتغلبيني بكلامي، ماشي يا دكتورة قمر ماشي!

– المهم تركز ومتضغطش على أعصابك وامشي على العلاج عشان هنبدأ علاج طبيعي قريب، المهم بس تاخد بالك من نفسك ولما تكتب حاجة وريهالي.

قالتها مبتسمةً فشكرتها جزيلا، وابتسمت لي وخرجت، وكأن عيني بدأت تخرج قلوبا تجاهها، وكأن كلماتِها لا تخرج من عقلي، الكتابة شغفٌ؛ إن لم تستغله في كتابة شيء تحبه وتشعر به فلا تكتب، نظرت ليوسف وعيناي تلمع، ومصباح أفكاري يضيء وقلت له:

– يوسف، القمر الأحمر.

فنظر لي يوسف بتعجب وسأل:

– القمر الأحمر؟

– أيوه، القمر الأحمر، أو القمر الدامي، حاجة كده مبتظهرش إلا كل 18 سنة مرة مثلا.

– يس أنا مش فاهم إنت بتتكلم عن إيه.

– يوسف إنزل هات اللاب بتاعك، عندنا قصة هنكتبها.

***

قصة/ حكاية في ميدان القمر

(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

«أفضل الحرية مع الخطر على السلم مع العبودية»

–جان جاك روسو–

❁❁❁

(انشقت أنفاسي من مطاردته لي في كل لحظة، لم أستطع أن أناوب بين شهيقي وزفيري حتى كادت تنفجر رئتي، وكلما قدمت له من قرابينه التي يطلبها مهما قدمت لا يعجبه، وكلما قررت الهروب فرارا من ذلك القدر التعيس كلما طاردني حتى أصبح جزءا متأصلا من حياتي البائسة وكأن السعادة شيء بعيد بالنسبة لي، وكأن قدري يغوص في بحر الحزن دون اعتراض مني حتى أصبحت غريقا به).

– لا لا لا، إيه القرف دا، مش دا اللي ف دماغي خالص لا ف الأسلوب ولا الحوارولا صفات البطلة، لا لا إيه دا.

قالها وهو يزفر في ضيق ذلك الدخان الباقي من سيجارة ذات نكهة التوت، وخلع نظارته خوفا من أن يكسرها كما كان يكاد يكسر أسنانه

من الغيظ، وأنامله التي يدق بها بقوة على أزرار تلك الآلة الكاتبة التي كان يهواها ولا يرغب في تغييرها مهما أكل الزمن عليها وشرب.

لم تكن عادته أن ينقل أدوات كتابته إلى الشرفة، فكان الالتزام بغرفته وعدم مغادرتها أحد سمات نجاحه، بالرغم من إطلالة شرفته على أحد ميادين منطقة (وسط البلد) بمبانيها القديمة وأضوائها ليلا، وكأنها أنغام تعطي ليالي القاهرة روحا بديعة؛ لا يلحظها إلا قليلًا، ولكن برغم تلك الأضواء كان هناك ضوء أكبر، ضوء لم تعتد عيناه أن تلمحه فيشعره بتناغم الألوان في عينيه بما يميل لدرجة الشفق الأحمر البديع، رفع نظره قليلا إلى السماء فكان ذلك البديع الذي لم يره إلا في صور على الإنترنت، كان القمر الدامي، ذلك هو المايسترو الذي يعطي تناغم تلك الأضواء في عينيه، بل وتناغم المشاعر في أحاسيسه، ربما لمعت عيناه ونبض قلبه، أحس أنه مفتون بتلك التميمة التي قد تثير في نفوس المستيقظين ليلا شيئا من الإبداع أو الحب أو الجنون.

ربما كان مخطوفا أو مذهولا في بادئ الأمر، وربما أحس بأن الوقت من حوله لا يمت لليل بصلة، ولكنه تأكد الآن أنه معجب بذلك الذي يراه وكأنه (تحوت) إله القمر، ورمز فن الكتابة عند القدماء المصريين.

نفخ آخر أنفاس سيجارته، نظر إلى آلته الكاتبة، أحس باشتياق مفاجئ لها، وكأن هناك الكثير من الإلهامات اقتحمت عقله جعلته يصل إلى ما يريد، نظر إلى علبة سجائره، أشعل تلك الأخيرة الساكنة بعلبته وكأنه يعلم أنه قد يحتاج الكثير بعد ذلك لأجل سيل الإبداع الذي وصل إلى عقله وخياله، وأخرج تلك الورقة القديمة من مثبتات الآلة ووضع غيرها، ثم بدأ.

ما رأيكم في السيارة السبور ذات موديل هذا العام؟ ها أنا ذا أركبها، منذ زمن ليس ببعيد كنت أنظر لراكبي تلك السيارات وأنا أنحي خصلات شعري بأناملي جانبا بنظرات التحدي والعداء وأقول في نفسي أنني سأركب تلك السيارة في يوم من الأيام، واليوم أحقق هذا الهدف، ولكني لم أتوقع أنني سأحققه هاربة من ذلك الذي يود الوصول إلى جثتي قبل أن تصل عقارب الثواني في الساعة إلى خط بدايتها من جديد، ولكني عندما أنظر لنفسي فإني أراني دائما حققت ما شئت.

الأنثى تحقق ما تشاء دائما مادامت تريده من أعماقها، هذا ليس تظاهرا بالقوة، ولكنها القوة بالفعل، فالقوة هي أن تقف أمام الشيء الذي تظن أنه قد يزلزلك من الداخل فتهتز وتنكسر ولا تهتز أو تنكسر، بل تصبح صامدا كعماد الأرض لا تتغير أو تنشقق.

أنا لا أدري ما رأيك أنت أو سواك بي، ولكن أنا لنفسي وحدي، أؤثر عن قوة وعزة نفس أن أحيا في وهم من شيء اسمه الحب، ذلك الإحساس الأحمق الذي صرت لا أؤمن إطلاقا بأي شيء من تلك المعاني التي يصدق الجميع بها مثل الحب والعشق والحظ والجنون، ولكنني أؤمن بأنني لن أسمح بشيء هدم أحلامي مهما كانت حتى وإن أراد تغيير شكلها عما أريد، فلن أسمح.

صوت محرك السيارة يعلو، وعداد السرعة يكاد ينهار وهو لا يكف عن مطاردتي فقط لأنني تسربت من بين يديه، يرى في نفسه حق امتلاكي، مخادع مثل الكثيرين، يهوى صيد الغزلان التي تروق له كي يحنطها ويمتلكها، ولكن أنا من اصطدته قبل أن يفعل.

كان رجل أعمال وكنت مساعدته، فساده يتعدى حجم المحيط الهادي وقت إعصاره، بين أدوات طبية مسرطنة وجرائم قتل واحتيال، ظن أنه صياد ماهر عندما وجد كل واهبات النفس تجلس في فراشه كل ليلة حتى اختل نظره وظن الجميع مثلهن، ولكن بمجرد ما حصلت على ما أريد من تلك السيارة وبعض الأموال بنفس سلاحه الذي كان يريد استخدامه لاصطيادي كانت الشرطة قد قبضت عليه بعد بلاغ قُدِّم من أنثى مجهولة؛ كانت أنا.

وبعد قضاء عام في السجن من القضايا والاستئناف ها هو ذا يخرج خاليا من كل تلك التهم، وها هو ذا يقود سيارته خلفي بأقصى سرعته يحاول قتلي بعدما فشل رجاله.

أصبحت في وسط القاهرة، ترى هل تغيرت شوارعها أم أنني لم أعتد النزول إليها كثيرا، كنت أقود بسرعة مجنونة، القيادة قبل بزوغ الفجر بساعة وبسرعة كان أحد الأحلام أيضا والتي حققتها اليوم بالمناسبة، أضواء القاهرة في هذا الوقت بين تلك العواميد المنيرة بالأضواء، وضوء القمر كذلك، القمر!

لم أتخيل أن أراه بهذا الشكل في عمري، يقولون أن تلك الظاهرة تحدث كل 18 عاما، إذًا فهذه ثاني مرة تظهر في حياتي، ولكنها أول مرة يقع نظري عليها، القمر الخارق أو الدامي، الشفقُ الأحمر الذي يثير الرعب عندما تراه وحدَك وربما ليس الرعب، ولكن هي رهبة رؤية الشيء أول مرة، ولكنني أشعر منه ببعض الجمال.

خسارة، لقد انحرفت في الطريق بين البنايات كي أختفي عن نظره أو يختفي عن نظري، ولكن هل ضاع هذا الجمال؟ هل سيسمح لي الطريق أن أراه مرة أخرى؟

لقد اختفيتُ عن أنظار ذلك اللاحق بي، وأخيرا وبعد طول عناء عليَّ أن أشكرَ تلك السيارة، السيارة! لقت توقفت السيارة، انتهى وقودها، لم يكن ذلك من ضمن أحلامي إطلاقا، نزلت من سيارتي مسرعةً وأنا أنطلق، أجري بكل طاقة موجودة بداخلي، دخلت أحد الشوارع الموجودة أمامي فوجدت نفسي في أحد ميادين وسط البلد، انشقت أنفاسي، لم أستطع أن أناوب بين شهيقي وزفيري حتى كادت تنفجر رئتي وأنا لا أعلم عن ماذا أبحث، مكان للاختباء؟ للراحة؟ لأي شيء؟!

استقرت قدماي في وسط ميدان طلعت حرب، واستقرت عيناي على أحد الأكشاك الموجودة على بداية أحد الشوارع المطلة على الميدان، انطلقت أعبر الطريق سريعا أصارع تنفسي وأنا أقترب منه، فرأيت ذلك البائع الهائم على وجهه يريد بعض النوم يعطي شابا علبة سجائر ونقودًا؛ يبدو أنها الباقي من ثمنها، اتجهت لهما وبدأت ألتقط أنفاسي، نظر إليَّ ذلك الشاب واتجه مسرعا إلى جانب الكشك يحضر لي كرسيًّا كي أجلسَ عليه، لم أستطع الكلام، أشرتُ إليه وحسب فأقسم أن أجلسَ ففعلت ذلك، ثم اتجه إلى ثلاجة الكشك مخرجا منها زجاجةَ مياه مثلَّجَة وأعطاها لي، فهجمت عليها وكأنني كنت في صحراءَ قاحلةٍ وابتلعت مشروبا من الصبار تسببَ في عطشي طول هذه الفترة، أنهيتها كلها، ثم بدأت أهدأُ، وبدأت الحديث قليلا وهو يقفُ أمامي للاطمئنان عليَّ، سألت عن أقرب مكانٍ لفندقٍ في تلك المنطقة فأشار لي بأن الأمرَ

سهل طالما أملك إثبات شخصيةٍ والمال الكافي لحجز تلك الغرفة، نظرت إلى يديَّ، الحقيبة! لقد نسيت الحقيبة في السيارة بكل ما فيها من ممتلكاتي، اللعنة!

لم أستطع فعل شيءٍ، هززت رأسي بالنفي وأنا لا أملك حيلةً لأي شيء، فابتسم لي، كان وجهه بشوشًا قليلا؛ قد يبعث فيك بعض الراحة النفسية وقال بهدوء:

– أنا عندي الشقة بتاعتي ليها أوضة بتاعتنا فوق السطوح، السطوح بيطل على الميدان، ممكن أفتحهالك وتنامي فيها لحد الصبح وتشوفي هتعملي إيه؟

– طيب و أنا أضمنك إزاي؟

ابتسم لي في هدوء وقال:

– زي اللي هيضمنلي إنك مش هتاخدي حاجة من الأوضة لأنها فيها أعز ممتلكاتي.

كان رده بسيطا وسريعا، وعليَّ الاعتراف أن سؤالي ساذجا للغاية، من ذلك الذي سيذهب فجرا لأحد الأكشاك فتقابله أنثى بالصدفة فتثير من غرائزه شيئا في ذلك الوقت وهو قد لا يرى نصف ملامحها، أما النصف الآخر فقد يظهره ضوء الشفق البديع الساطع من ذلك القمر، كان منظرُه بديعا من فوقِ سطوح منزله، ضوءُه الذي ينير الميدان بنوره الأحمر بالتناغم مع أضواء عواميد الإنارة، وكأنها إحدى أغاني (لويس أرمسترونج)، ربما عليَّ تسمية هذا الميدان بـ(ميدان القمر).

لم ألتفت إلى ذلك الشاب إلا عندما أشار لي بأن أدخلَ مبتسما في وجهي، أعترفُ أن ابتسامتَه كان بها شيءٌ من الطمأنينة.

دخلت الغرفة، كان ديكورها بسيطًا، ضوء صغير كشف عن شكلها، كانت مرتبةً للغاية ونظيفة، بها سرير ومكتب ومكتبة كبيرةٌ مليئة بالعديد من الكتب، ويبدو عليها أنها كتب قيمة، وبعض الصور المعلقة له يتسلم جوائزَ من فوق مسارح ويمسك بميكروفون يتحدث في إحدى الأماكن، كانت الغرفة جميلةً رغم بساطتها.

نظر إليَّ مبتسما ثم قال لي أنه سيذهب ليحضر لي بعض الطعام وأنه لن يتأخر، وانطلق مسرعا، بدأ القلق يعود لي من جديد، هل سيظهر ذلك الملعون أو لا، الميزة في كونك تملك عدوا هو أنك ترى في شخص نفس الإصرار لشيء ما تودان أن تصلا إليه معا، وهو نهاية طرف منكما.

حاولت أن أتناسى كل شيء، التفت لذلك المضيء اللامع في السماء، نسيج من خيال بدأت أعيش فيه، أحلامي التي تحققت، السيارة والنقود ومنزل بديع، كهذا يسمح لي أن أرى كل الجمال أمام عيني، تعجبت من شعوري بالخوف تجاهَه أول مرة، لماذا نخاف من أي شيء جميل وصافٍ لمجرد أن شكله جديد وغريب على العيون، ربما لأن العيون لم تعد تعتاد سوى على القبح وحسب.

مر وقت طويل وأنا أتمعن لدرجة أنني لم أشعرْ بغيابه حتى سمعت خطواتِه من على الدرج، عاد وهو يحمل الطعام مبتسما كعادته فابتسمت له كنوعٍ من الشكر واتجهت بنظري إلى ما كنت أنظر إليه

مرةً أخرى.

اقترب بجانبي قليلا وفي يده علبة السجائر التي اشتراها يعرض عليَّ منها فأخذتها منه مبتسمةً، وأخذ هو واحدة أيضا وأشعلناهما، وبدأت رائحتهما تنتشر في المكان، لم أستطع تحديد طعمها، ولكن لفت نظري ذلك الدخان الذي يتجه برائحته وشكله إلى السماء، إلى حيث يسكن القمر، فاتجهنا ناظرين إلى السماء قليلا ثم بدأ يستطرد ويقول:

– القمر الدامي، تقريبا أول مرة أشوفه، أو أول مرة أركز في القمر بشكل عام، حاجة كده عاملة زي ما تقرري تحرقي حاجة فيطلع منها تحفة فنية لونها أحمر بديع.

فردتت مسرعةً:

– مش كل حاجة بنحرقها بيبقي شكلها بديع، بدليل أن نفسنا بتتحبس وتتحرق كل يوم، هل بيطلع منها إبداع؟

– وأحلى إبداع، فكري في حياتك إستحالة تلاقي نفسك حققتي حلم غير وانتي محروقة من جوا، بيبقي عندك طاقة تفحتي ف الصخر وتحققي ذاتك، بيبقي عندك طاقة تنحتي نفسك وتعرفيها أكتر وبتبقي أقوى أكتر وأكتر، بس احنا اللي مبنركزش، إنتي عارفة لو كل حاجة كسرتنا خدناها وعملناها سلم عشان نوصل لحاجة كان زماننا وصلنا للسما زي القمر دا، بس إحنا أغبيا، بنفضل نصلح ف المراية اللي اتكسرت ونعور إيدينا بنفسنا مع إننا كان ممكن نرميها ونجيب غيرها.

نظرت له متمعنةً، كان معه حق، أنا لم أحقق أحلامي إلا عندما كرهت نفسي ونظرت للأحلام بنظرةِ الشيء المسلسل الغير متحقق، أنا لم أحقق شيئًا إلا عندما نحتت نفسي بالفعل، وكأن الثقة فخ لا تستطيع أن تحقق من خلاله شيئًا إلا عندما تكف عن الثقة في تحقيقه، والتفتُّ للقمر مرةً أخرى وكأن شريط ذكرياتي يسير كفيلم في كاميرات قصور الثقافة القديمة، باللون الأحمر، وكأنني لا أشعر براحة...

شيء ما سرى في جسدي بعد صوت انفجارٍ دوى فوق السطح، أشعر به في ظهري ويتجه إلى قلبي حادًّا معدنيا غليظا، كانت طلقة، شعرت بها تخترقني بكل قوة، تكسرني، والشريط أمامي لا يزال يعرض وعيناي ثابتتان في اتجاه واحد: القمر، القمر الدامي صاحب شفق الشعاع الأحمر بلون دمي الذي أعتقد أنه في نفس درجة لونه، صمت وهدوء للأعصاب، عيناي تغمض شيئا فشيئا حتى بت لا أشعر بشيء، وهذا ليس بجديد، فأنا لا أشعر بشيءٍ حتى الألم في كل حياتي، حتى انتهيت.

***

الصمت، صمتٌ تام بات يسري في أفكاره، لم يدرك تفاصيل ما حدث، شرود للأفكار لا حصر له، لا يعرف شيئًا سوى ندم ذلك المجنون الذي أطلق الرصاص، سجدَ على جسدها يبكي وهو ينادي عليها لتفيقَ وتستجيب له، ويداه التي تضرب على الهاتف لتطلب سيارة الشرطة واعترافه بأنه من قتلها، لا يتذكر سوى تفاصيل جمالها وسيارة الإسعاف تخفي بالملاءة البيضاء ملامح وجهها على الناقلة وسيارة الشرطة تقبض على هذا المجنون الباكي.

هل كان يدرك كل تلك التفاصيل؟ هل كان يدرك أنه سيترك آلته الكاتبة التي كان يكتب عليها متأملًا بنظره إلى ذلك الساحر الساكن بالسماء ويذهب لشراء علبة سجائر أخرى بعد انتهاء الأولى، فيقابل تلك الجميلة التي تبحث عن مكانٍ تأوي فيه، فيتركها فوق سطح منزله وينزل متجهًا لمطبخه لتسخين الطعام لها، ثم يطير لآلته الكاتبة ليجعل مواصفات البطلة كمواصفاتها من شعر بني ولون أبيض وملامحَ جميلة تسخر في عيون ساحرة تركز على القمر الدامي حالمةً في كل أسرارها وخباياها؟ لم يعرف شيئًا عنها سوى جمالها، لم يعرف حتى اسمَها أو سببَ هروبها وقتلِها، لم يعرف هل القدر قد سخر له القمرَ في صورة قمرٍ يسير على الأرض.

هل يعلم أن القدرَ جعله يشتعل فينهي سجائرَه فيشتري علبةً أخرى فجرًا ثم يعود فيعطيها واحدةً منها وتسود رائحةُ التوت ودخانُه أجواء تصعدُ إلى عنان السماء، فتشكل لوحةً مرسومة على سماء ذلك القمر؟ هل كان يعلم أن القدرَ سيجعله يرى دماءَها بعد إصابة عيار ناري فيها، فيراه نهرا من لون شفقٍ يثير الجنون كذلك الساكن في السماء؟

ولكنه بات يعلم شيئا واحدًا فقط، هو أنها لن تخلو من قصصه وحكاياته أبدًا بكل صفاتها، وأنها ستصبح سببًا يلهمه دائما بعد تلك الحكاية التي عاشها معها، وربما عند ظهور القمر الدامي مرةً أخرى سيكون جالسا عند قبرها وكأنه يشاهده معها، فربما كان هو سببَ ظهورها، أوهي سببَ ظهوره، ولكن المؤكد أنها سببُ تلك الحكاية.

حكاية في ميدان القمر

– تمت بحمدالله أخيرا.

قلتها وأنا أتنفس الصعداء، أول قصةٍ، أخيرًا وابتسم يوسف لي وضحك لسعادتي وقال لي:

– أيوه يا ولدي بقالي كتير مشوفتش الضحكة دي، استنى بس نحفظ عشان مفيش حاجة تروح، بس استنى، بس أتأكد منك ف حاجة قبل ما نحفظ.

كنت مبتسما للغاية فنظرت له قبل أن يحفظ القصة وقلت:

– إيه هي؟

– إنت بتكتب كلمة الحكاية بال(y) ولا بال(I)؟

نظرت له في تعجب وسألت:

– لا مش فاهم؟ (Y) و(I) إيه؟

– بص عشان تفهم.

قالها فنظرتُ لشاشة الحاسوب وفمي يُفتَحُ على مصراعيه وأنا أنظر للقصة بعينين ذاهلتين:

– إنت عملت إيه، عملت إيه يابن الجزمة إنت؟

قلتها في عصبية شديدة وأعتقد أن مؤشر الضغط وصل لـ200 على 60 في يومها.

– إيييه؟ في إيه؟!

– في إيه؟ إنت بتسأل في إيه، إنت كاتب القصة بالفرانكو.

كانت الكتابة كاملةً باللغة الإنجليزية على طريقة الفرانكو، لغة كتابة الشات الإلكتروني على مواقع التواصل الاجتماعي.

– مش إنت قلتلي اكتب زي ما بتكتب ف الشات؟

– ف الشات! ف الشات! إنت بتبرر غباءك؟! ف الشات يا...

(حذفت الجملة القادمة لاحتوائها على ألفاظ بذيئة لا يصح كتابتها أو قراءتها تماما مع بعض الأصوات العالية من الأنف والفم وصرخات أدت لارتفاع ضغط الدم).

ويمكنك أنت تخيُّل كل ما حدث...

***

اليوم التالي

لم أكن على عادتي أبدا في هذا اليوم، كنت أجلس وعيناي تكادان تخرجان وتقفزان بجانبها، جالسة أمامي بملابس مختلفة لا بد أن تحملَ طعم اللون الأحمر الذي يصبحُ رائعا عليها، ويجعل منها أميرةً لمملكة من الجميلات تصبحُ هي أجملهم، هذا الشيء الذي ينبض يساري هو الذي كان يذكرني دائمًا بأن هناك الكثير والكثير لأقوله.

ولكنه توقف عن العمل آنذاك.

كتاباتي وأقلامي وفنجان قهوتي، كل منهم ساعدني في ترتيب خطواتي إليها، كانت خطوةً جريئة قليلا أن أعطي لها تلك المساحة بشيء من الرضى والتمني بأن تقبل تلك المساحة بكل حب، كانت تجلس أمامي تقرأ ما كتبت، أشعر في عينيها بشيءٍ من الإعجاب، وخصوصًا مع كل رشفةٍ تأخذها من مشروبها المفضل، كانت تعشق القهوة مثلي، ربما هو شيءٌ عادي، أو أنني أتشبث بأي شيءٍ يعطيني أملًا في وجود نقاطٍ مشتركة تجعلني أقرب إلى قلبها.

أنهت قراءَتها ونظرت إليَّ وعيناها فرحتان مبتسمتان، ابتسمت لي وهي تقول:

– رهيبة! رهيبة بجد! بر افو عليك بجد! أنا دمعت و أنا بقراها! عجبتني أوي!

بمجرد تلك الكلمات البسيطةِ أصبحت ابتسامتي وفرحتي من أذني اليمنى إلى اليسرى فقلت لها:

– بجد، عجبتك أوي كده؟

– جدًّا، جديدة وكلامك فيها رهيب، إنت مش متخيل، بس أنا عندي سؤالين ممكن أسألهم؟

– أكيد طبعا.

– السؤال الأول، إنت مش ملاحظ إنها قصيرة شوية، مش قصة طويلة، يعني دي كام صفحة؟

– بصي أنا هفهمك، القصة دي هتبقي من ضمن كتاب مجمع مع أكبر مؤلفين في مصر، هينزل المعرض الجاي، عشان حملة (الكتاب حياة)، ف كله قصص قصيرة كده، ودي منهم، وكتبتها عشان تبقى مختلفة ووسطهم ويبقى فرع جديد وسط الفروع.

– اممممم، كده فهمتك، طيب السؤال التاني، إنت ليه بقا قتلتها في الآخر، كان ممكن تعمل نهاية تانية غير دي.

اقتربت من علبة سجائري التي أمرت يوسف بشرائها، فوجدتها تنظر لي وهي تهز يديها أن لا أفعل، وبصراحة احترمت أمرَها فتركتها في مكانها ثم نظرت لها لأجيب سؤالها مبتسما:

– كان إيه سؤالك بقا؟

– ليه موتها، ليه مخلتها تعيش.

– عشان مفيش حد حر بيعيش، الأحرار دايما يا بيموتوا يا بيتقيدوا، لكن مفيش حر بيفضل عايش أبدا.

– بس أنت نفسك طلعت إتكلمت عن نفسك، وقلت ف كتاباتك قد إيه إنت حر وقد إيه إنت مبتسمحش لحاجة اتقيدت.

فقلت ضاحكا:

– مانا متقيد في السرير أهو!

فضحكت قمر معي ثم قالت:

– بس إنت متقيدتش، قلمك أهو متقيدش، وعقلك متقيدش، وكتبت وقدرت تحقق أول قصة أهو، إنت حر وهتقدر تكمل، أنا واثقة في دا يا أستاذ يس.

– يس بس يا قمر، يس بس، وأنا هقولك قمر بس.

فابتسمت لي:

– وأنا ليا الشرف يا يس، هقوم أعمل جولة في المستشفى وأجيلك تاني.

– وأنا هستناكي.

قالتها وهي تتحرك من مكانها متجهةً لباب الغرفة، ثم فتحته وابتسمت وانصرفت وهي تغلقه، وكأنني تمنيت عكس كل أمنياتي، أنا الذي كنت أتمنى أن يسرع الوقت لكي أعافى من ذلك المكان المقيِّد لي،

تمنيت أن يبطئ الوقت فلا تغيب عن عيني، وأنا الآن أتمناه يسرع فتعود لي مجددا لتطمئن عليَّ ونتناقش.

اليوم أيقنت شيئًا واحدًا، كيف لشخص أن يقيَّد ولا يستطيع فعل أي شيء أمام عينيها، أمام كلماتها ورأيها، وضحكتها التي تنشر عبير الحب فوق كل شيء، نعم، كنت معجبًا بها، لكن اليوم... أحببتها.

قطع شرودي دخول يوسف بسرعته مبتسما فابتسمت إليه وقلت:

– مواعيدك بقت مظبوطة، اقعد بقا عشان فكرة القصة استوت.

فضحك يوسف مسرعا وقال:

– شكلك إنت اللي استويت يا صاحبي.

فضحكت منه وجلس بجاني وقد جهز الحاسوب وملف الوورد، وبدأنا العودة مرةً أخرى.

***

قصة/ ليل

(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

«سأغوص في الأمر أكثرَ مما أستطيع إلى أن يجف فضولي كله، وإلى أن أعرفَ الحقيقة»

–كونان–

من أحد أجزاء مسلسل (المحقق كونان)

بعنوان: (اصطدام الأحمر والأسود)

مبنى الأمن الوطني

غرفة الاجتماعات...

الساعة الثالثة عصرا...

علينا التفكير في منح جائزة نوبل لمخترع المكيف البارد هذا، أعتقد أنه ما كان لجلسات السلام العالمي التي تُذَاع على التلفاز ولا ينفذ من معاهداتها شيءٌ لولاه، وما كان لأعضاء مجالس الشعب في كل دول العالم أن يجلسوا فيبتوا في أمور لا تهم الشعب في شيءٍ؛ ولكنها تفيدهم في كيفية الحصول على الحصانة حتى يأكل يأجوج ومأجوج سور ذي القرنين كاملا فتبدأ علامات يوم القيامة الكبرى...

وما كان لنا أن نرى أشياء جميلة كجسد ماروجت روبي من فيلم (The wolf of wall Street) لو لم تجد في المكيف شيئًا يجعلها تشعر براحة لتقوم بالمشهد بكل تلك الواقعية مع ليوناردو ديكابريو بدون الخوف من حرارة المشاهد الجنسية.

أعتقد أنه لولاه أيضا ما كان لهذا الصف من الضباط واللواء والعميد الجلوس في اجتماع مطولٍ لأكثرَ من 3 ساعات في شهر سبتمبر من وقت الظهر لوقت العصر دون وجود المكيف وتلك الثلاجة الصغيرة التي لا يشرب منها إلا اللواء وحسب، وتكن دائما مليئةً بزجاجات عصير مصنوعة من الزجاج ويكون ذلك العصير دائما بطعم الـ(مانجو) ولونه البرتقالي...

كانوا يجلسون ببدلاتهم وأمامهم العديد من القضايا التي يتناقشون فيها ويسمع اللواء كل ضابط برتبته وآخر ما وصل إليه في قضيته باهتمام كبيرٍ بينما يعطي ملاحظاته والخطوات التي يجب أن تسير في اتجاهها تلك القضية، حتى أشار اللواء إلى أحد الضباط الجالسين بالكرسي الرابع على طاولة الاجتماعات، كان أصلع الرأس بجسدٍ يافع ورتبة رائد وبعض العضلات، يجلس مرتديا بذلته ذات اللون الأسود الداكن، يجلس مستمعًا جيدا لكل أخبار زملائه وكأنه يسجلها داخل رأسه، وينظر بتلهف إلى اللواء منتظرا أن يسأله عن تحرياته حتى فعل.

– عمرو، أخبار قضية الأم والبنت بتاعت بنسيون وسط البلد إيه؟

قالها اللواء، ففتح الرائد عمرو الملف بثقة وهو يقول:

– أنا إمبارح رحت عملت تحريات بنفسي في البنسيون، البنسيون اسمه الزهور، موجود قريب من ميدان طلعت حرب ف وسط البلد، البلاغ عن الجريمة تم إمبارح الساعة 9 الصبح بعد اختفاء الضحية وبنتها عن الأنظار لمدة 4 أيام، وبعد منشورات غريبة اتكتبت من حساب الأم على الفيس بوك واللي كانت بتتابع بيه الناس.

نص الرسالة كان التالي:

(كنت أظن مثل الجميع أنه لا يمكننا ذبح الخنازير بسبب الدهون حول رقبتها، ولكنني اليوم أعز ائي أثبت لكم عكس هذا، لقد كان الأمر سهلا معها، الأمر ممتع، ولزيادة جرعات المتعة اغتصبت

ابنتها وكانت الصرخات عاليةً للغاية، رغم أطر افها القصيرة إلا أنها تعطي متعةً كبيرة).

نظر الحضور إلى بعضهم البعض وبدأوا يتمتمون ويهمهمون بكلمات بسيطةٍ، بينما كان اللواء ينظر إلى نظراتهم ومناقشاتهم، أما عمرو فقام بتمثيل تكملةِ قراءة الملف في سريةٍ دون النظر إليهم، ولكنه كان ينظر إليهم نظراتٍ خفيفةً وكأنه لا ينظر، حتى رفع عينيه إلى اللواء الذي أشار له بأن يكملَ فهز عمرو رأسه وأكمل.

– الأم كانت ليها هواية الكتابة وعشان كده الناس أو سكان البنسيون أو اللي يعرفوها كانوا فاكرين إنه مجرد منشور عادي يعني وهيعدي من ضمن منشوراتها الغريبة، لكنهم لاحظوا أن الأم والبنت اختفوا بعد المنشوردا لمدة 4 أيام تقريبا، وخبطوا على أوضتهم ف البنسيون كذا مرة محدش رد، لحد ما قرروا إنهم يكسروا الأوضة، ولما كسروها لقوا إللي هوريه لحضر اتكم على البروجكتوردا.

تحرك عمرو من مكانه وجميع الحضور ينظر له باهتمامٍ شديد، واتجه إلى شاشة البروجكتور مشيرًا لأحد زملائه بتشغيله ففعل هذا وأداره، فكانت الصورةُ لجثة أنثى في أواخر الخمسينات ذات شعرٍ قصير مرتدية ملابس النوم ومذبوحةً من الرقبة بدمٍ متجلط على رقبتها، فظهر الذهول قليلا على عيون الحاضرين، فبدأ عمرو يتابع نظراتهم ومناقشتهم السرية، ثم أكمل حديثه:

– الجثة دي هي جثة الأم، (حنان عوض سعيد سامي الجميل)، 58 سنة، من مواليد إسكندرية، تقريبا عاشت أغلب عمرها هناك لحد سنة 2012، ضربت السيول بيوت كتير في إسكندرية خلى البيت يتهد على جوزها (كريم عبد الحكيم داوود) موظف في محكمة إسكندرية، ملهاش منه غير بنت واحدة بس (ليل)، البنت من مواليد 95 يعني عندها حوالي 23 سنة، معاها ثانوية عامة بس مدخلتش كلية، الأم وبنتها اتنقلوا القاهرة بعد حادثة السيول وعاشوا ف البنسيون لحد دلوقتي.

– طب والبنت؟

قالها أحد الحاضرين فأجاب عمرو سريعا:

– البنت مختفية من يوم اكتشاف الحادث، ولحد دلوقتي مش باينلها أثر.

– يبقى احتمال أن البنت تكون قتلت أمها وهربت، أكبر احتمال موجود في القضية دي إن مكنش الوحيد.

قالها أحد اللواءات فقاطعه عمرو سريعا:

– لا يا فندم، طبقا للجيران وللتحريات الاحتمال دا شبه مستحيل.

فنظر الجميع إلى عمرو متعجبين، فقطع عمرو أحاديثهم التعجبية التي لا فائدة منها سوى إضاعة الوقت وحسب وقال:

– كلام الجيران اللي جمعناه والتحريات أثبتت أن (ليل) عندها ضمورفي الحبل الشوكي للأطراف وضمورفي العضلات، وإنها من ذوي الاحتياجات الخاصة من يوم مولدها، مبتقدرش تتحرك وعايشة على الكرسي المتحرك من ساعة ما تولدت، ودا بينفي عنها كل التهم.

قالها عمرو وهو يعرض على البروجكتور صور لليل مع والدتها وهي تجلس على الكرسي المتحرك في مراحل عمرية مختلفة في وضع يوضح حالة مرضها، أما أمها فكانت بشوشة الوجه ويظهر ذلك من بسمتها الراضية في جميع الصور على مدار العمر.

– معنى كده أن البنت مخطوفة؟

قالها أحد اللواءات فبادله عمرو بالرد سريعا:

– التحريات الأولية بتقول كده يا فندم، وبعدين إللي عرفته من الجيران ف البنسيون أن البنت كانت بتتابع حالتها مع دكتور اسمه (عادل سعيد) و أنا أمرت باستدعائه عشان يكتبلي تقرير بحالة البنت، ودا هيثبت أن كانت فعلا بعيدة عن القضية ومتقدرش تعمل كده ولا تقدر، كذلك بعتت ناس من عندنا يعملوا تحريات أكترعنهم هنا وفي إسكندرية، دا غير إني مستني تقرير الطبيب الشرعي.

هز اللواء رأسه متفهما وهو يدفس سيجارته بعد نفخةٍ طويلة من دخانها المتراكم في رئتيه داخل المطفأة ثم قال:

– عمرو، إبعت كمان لمباحث الاتصالات، شوف المنشور اللي كاتباه الأم دا مكتوب من أنهي مكان في البلد، اللي عمل خطوة المنشوردي أكيد كان عايز يوصل منها لحاجة.

– تمام يا فندم.

قالها عمرو وهو يرفع التحية الرسمية للواء، ثم أخذ ملفه من فوق المكتب وانطلق منصرفا من الاجتماع سريعا وكأنه يتنفس آخر أنفاسه قبل الموت، شكر خاص لجملة (التحريات بتقول) لأنها كانت المنجية من كل سؤالٍ يتعثر عليه إجابته حتى انتهت منهم الأسئلة، أو ربما ملوا من كثرة الحديث ويحتاجون للذهاب إلى زوجاتهم وأولادهم قليلا.

خرج من الغرفة مغلقا بابَها وأخرج هاتفه من يده، كانت خلفية الهاتف صورة لأنثى محجبة بعيون بنية لامعةٍ بعض الشيء ولون أبيض بنمش بني في الوجه طالما يتأثر عندما يراها، ورغم ذلك لم يغيرها أبدا، علينا الجزم قليلا بأنه يوجد في الألم بعض المتعة وإلا ما صبرنا عليه، أم أننا نصبر لأنه ليس أمامنا حلٌّ آخر.

لم يهتم لألمه تلك المرة واتجه إلى قائمة الاتصالات فوجد رقما مسجَّلًا باسم (عزيز الشرعي) اختاره وقام بالاتصال به، صوت تلك الأنثى التي طالما تفسد أي مكسب لشركات الهواتف النقالة من بعض الدقائق التي يمكن استغلالها وهي تقول (الهاتف الذي طلبته مغلق أو غير متاح) فابتسم عمرو وهو ينظر للهاتف وقال:

– كده يبقى شغال جوا المعمل.

ثم خرج من المبنى باتجاه سيارته مسرعا كي يسعف ذلك الوقت الذي ينزف دون مراعاة لدقائقه.

***

مصلحة الطب الشرعي/ السيدة زينب

مصلحة الطب الشرعي، تلك المقبرة المليئة بالجثث المجمدة متخذة الثلاجات قبرا لها دون كفنٍ أو ثعبان أقرع، كل الأشكال والأنواع من البشر، أحياء كانوا أو أموات، بين جثث وعاملين وأطباء يختارون الضوء السهاري كاشفا لأدق التفاصيل في الجثة، وهذا ما كان يبحث عنه عمرو.

دخل المكان بعدما أشار ببطاقة هويته لضابط الأمن فأشار له بالدخول، واتجه إلى حيث يكون المعمل وكأنه يحفظ مكانه ويعرفه جيدا، وقف أمام باب معمل المشرحة ثم طرق الباب مرتين ثم فتح الباب بعد ذلك.

كان الجو باردا بشكلٍ ليس بغريب عليه، يبدو أنه يأتي إلى هنا كثيرا حتى اعتاد على المكان، دخل المعملَ وأغلق الباب خلفَه بهدوءٍ شديد لا يود أن يرفع صوته وهو يبحث عن شخص ما أو شيء ما، حتى وجد فانوس الضوء السهاري وكأنه وصلَ إلى هدفه من خلاله، كان الضوء ساقطا من السقف في موقعه يسكن ليضيء سريرًا فوقه جثة وبجانبها طبيب يرتدي المعطف الأبيض وممسكٌ أدوات التشريح ويقوم بإزاحة بعض الجلد حول الرقبة الذي أخذ فيها مقطعًا وجرحا طوليًّا بأدواته المعدنية لتسمح له بالرؤية قليلا، أما الجثة فكانت على سرير وتحت ظهرها ومؤخرتها حجر الجسم الذي وضعه الإطفاء ليرفع جسدها فيسقط رأسها وذراعاها مما جعل شق الجرح في رقبتها أمرًا سهلًا.

أما الطبيب فكان صاحب عين ملونة وشعر أسود قصير كقامته القصيرة وبتركيز عالٍ يعتني بالجثة ويشرح فيها وكأنه يتأمل قطعة لحم مشوية على فحم وطوب في نيوزلاندا.

اتجه عمرو نحوه في هدوء وخطوات ثابتة حتى أتى خلفه وقال:

– من كتر مانت قصير مبعرفش إنك هنا غير والنور منور، أنا عرفت انت متجوزتش لحد دلوقتي ليه.

– يعني إنت سبت إني دكتور ف مشرحة في مصلحة الطبيب الشرعي ونايم مع جثة كل يوم ومسكت فإني قصير، بلاش قلة أدب بقا.

قالها فضحكا معا سخريةً من ذلك الحال، وكأن أفضل علاج للحزن هو السخرية منه.

نظر عزيز إلى عمرو وقال بعدما أنهيا ضحكهما:

– عاينت مكان الجريمة؟

– أه.

قالها عمرو بهزة رأس سريعة فسأله عزيز:

– ووصلت لإيه؟

– والله يا عزيز يا خويا المعاينة الأولية كشفت حاجات كتير، أولا الجثة كانت موجودة على سرير، ثانيا مكنش في آثار عراك

خالص، بالعكس المكان زي ما هو مفيهوش كسر لحاجة أو حاجة إتحركت، ومكنش في آثار دم على الأرض. الدم كله ع السرير أو على الجثة، ومفيش كمان آثار لمسح دم عشان أقولك إنه اتمسح، فالموضوع بس مقدرش أجزم إنها اتدبحت وهي نايمة لإن راسها كانت مرفوعة على ظهر السرير.

– هي دي النقطة، الدبح تام بآلة حادة ومن حركة واحدة، الدبح جيه من ورا الجثة مش من قدامها، ودا الدليل القاطع على إنها متدبحتش وهي على السرير.

نظر له عمرو ثم نظر إلى الجثة وفي هدوء قال:

– و إيه كمان؟ كمل.

– لما عملت تحاليل للجثة لقيت حاجة غريبة، الجثة محقونة فورمالين.

نظر له عمرو في تعجب فسأل:

– عشان تحافظ على الجثة؟

– بالظبط، الوفاة حصلت قبل اكتشافها بـ 4 أيام.

هدأ عمرو بتمعن وكأنه يتذكر شيئا ثم قال:

– الأم والبنت فعلا اختفوا قبل اكتشاف الجريمة بالمدة دي، والبوست إللي اتكتب على الفيس بيؤكد الوضع دا، عزيز. تقرير الجثة دي يخلص إمتا؟

فنظر له عزيز مفكرا ثم قال:

– بعد بكرة عشان أكون اتأكدت من كل حاجة.

– تمام، كمل شغل على ماروح أشوف التحقيقات اللي عملوها مع الجيران واشوف الدكتور بتاع (ليل) دا.

– ليل مين؟

قالها عزيز، فنظر له عمرو نظرةً شبه احتقارية أو نظرة استهزاء، ثم ربط على كتفه وقال:

– كمل الجثة، كمل الجثة.

قالها تاركا ساحة الأموات تلك متجها نحو باب الخروج وابتسم له عزيز ثم عاد يكمل عمله كأن شيئًا لم يكن، وكأنه يعلم ذلك العنيد ويثق به أنه سيصل لكل شيء في أسرع وقتٍ.

منطقة مدينة نصر/ ميدان ممدوح سالم

بعد أذان الفجر بدقائق... الظلام الدامس الذي يسبق الضوء البديع، منظر الشروق الذي لن تراه وأمامك تلك السدودُ من البيوت وناطحات السحاب، ولكن قد ترى انعكاسه على مرآةِ السحاب التي يتغير لونها من الأسود إلى الأزرق حال سقوط الضوء عليها، كالقلوب التي تحتاج الأملَ حتى تضيء وتسعد وتعود للحياة مرةً أخرى، ولكن حتى هذه اللحظة هو ظلامٌ، ظلام وحسب.

بحذاءٍ أسودَ يسير في ذلك الوقت بخطوات دائرة بسيطة، يتحدث في الهاتف أمام إحدى بنايات المنازل، كان صوتُهُ خشنًا بعض الشيء بملامح سمراء وصلعة ما إن ترى الشروق حتى تعكس ضوءه للدنيا مع السماء؛ ينتظر رد أحدهم في الهاتف حتى أجاب فقال بنبرةٍ جادة:

– لو مكنتش رديت مكنتش تيجي تسألني عن البيعة، البنت معايا، التحاليل طلعت: الكليتين تمام وكذلك الكبد، ولو حبيت تفضيها خالص وتاخد عينين أو حاجة أهي مرمية فوق، 20 ألف دولار، أنا جايبلك أعضاء مبتستخدمش دي مبتتعوضش دي وبعدين في غيرك شاري، 18 ودا آخر كلام عندي، تمام، 3 أيام وهشحنهالك على العيادة بتاعتك، تمام.

ثم أغلق هاتفه مبتسما واتخذ سبيلَه إلى باب البناية سربا، ولكنه فرح بما وصل إليه، وراح يقفز ويتمايل منتظرًا المصعد حتى أتى إليه، فدخل فيه وأغلق بابه.

مبنى الأمن الوطني/ مكتب عمرو

نفس التوقيت تقريبا...

أما آن لهاتين العينين الذابلتين أن ترتاح قليلا؟

كانت قصاصة من إحدى الروايات قصها ووضعها أسفل زجاج مكتبه، أما هو فكان يشرب فنجان قهوته الخامس وهو يتابع ملف التحريات من أقوال الجيران والشهود، وكذلك ملف الأحراز، وتقرير كل ما تم العثور عليه داخل جهاز الحاسوب المحمول الذي تمتلكه حنان بانتباه شديد لا يريد أن يفوتَه شيءٌ، وعلبة سجائره تشتكي من ذلك الدخان الذي يحرقه أكثرَ من رئتيه نفسها.

كان الملف يعرضُ الكثير من أقوال الجيران وساكني البنسيون، كان التعجبُ هو اتفاق الجميع أن تلك الأنثى عظيمةٌ وحمولة ومساعدة برأي الجميع، وكأن عمرو بدأ بالتخيل بطريقة الفلاش باك وقراءة جميع التحريات.

***

مكتب التحريات/ وقت المغرب

– اسمك؟

– سهام جميل عودة.

– السن؟

– 51 سنة.

– الوظيفة؟

– مالكة بنسيون الزهور في وسط البلد.

– إيه معلوماتك عن القتيلة؟

– الست حنان جت سكنت عندي من حوالي 6 سنين، بعد مالمطر وقع بيتها في اسكندرية، جاتلي هي وبنتها ليل، بس ليل كانت مريضة بإعاقات يعني مكانتش طفلة عادية، ومن ساعتها وهما ساكنين عندي، الست حنان كانت ست جدعة ومحترمة وحمولة، شايلة بنتها 23 سنة وهي على كرسي بعجل ومرواح ومجي، ولما كان حد ف البنسيون يتأخر في السداد مكانتش بتتأخر لو معاها كانت بتسددله على طول.

– كانت بتصرف منين؟

– معاش جوزها، كان بيجيلها كل أول شهر، كان موظف ف محكمة إسكندرية يا باشا، وكانت عمرها ما بتتأخر عن الأجرة.

***

– اسمك؟ وسنك؟

– أحمد مختار السوليني. 33 سنة.

– الوظيفة؟

– مندوب مبيعات لشركة سفيوداكرول بتاعت أدوات الكهربا.

– إيه معلوماتك عن القتيلة؟

– والله يا باشا أنا معرفش عنها غير حاجات بسيطة لأني مش مختلط بأهل البنسيون أوي، بس أعرف إنها كانت ست طيبة أوي، دا مرة كانت أستاذة سهام صاحبة البنسيون بتتخانق مع أستاذ وجيه عشان كان مأخر شهرين راحت مطلعة فلوس ومسددهاله على طول ودا كان قدامنا كلنا.

– تعرف إيه عن بنتها؟

– بنتها كانت من ذوي الاحتياجات يا فندم، بس كانت ذكية جدا، كان عندها مرض بيخليها مبتحركش إيديها ورجليها وكان لسانها تقيل، بس لما كانت بتتكلم كان عندها ذكاء عجيب، مسائل رياضية وحسبات كانت بتحلها ف ثو اني.

– تفتكر مين ليه مصلحة في قتلها؟

– الحقيقة يا بيه معرفش بس هي طول عمرها في حالها ملهاش أعداء ولا ليها حد.

***

– اسمك؟

– عادل محمود سعيد سامي.

– السن؟

– 48 سنة.

– الوظيفة؟

– دكتور مخ وأعصاب.

– دكتور عادل إحنا عارفين إنك كنت الطبيب الخاص لـ(ليل) بنت أستاذة حنان عوض، الله يرحمها.

– دا حقيقي، أنا المسؤول عن الحالة من ساعة ما أستاذة حنان وصلت القاهرة.

– تقدر تشرحلنا إيه هي الحالة بأسلوب مبسط شوية.

– بأسلوب مبسط: ليل اتولدت وعندها عيب ف الكروموسومات، العيب دا بيأثر على المخ والحبل الشوكي ف توصيل الأعصاب

لأداء الجسم بوظايفه، بمعنى أدق الحبل الشوكي قصير إنه يوصل بأعصابه للأطراف، ودا بيخليها متقدرش تحركها تماما.

– فتعيش على كرسي متحرك طول عمرها؟

– بالظبط، ودا يخليها متقدرش تقوم بأي وظايف للجسم.

– طيب ومستوى الذكاء العقلي يا دكتور؟

– مش فاهم!

– الجيران شهدوا أن ليل كان مستوى ذكاءها عالي مقارنة بدا رغم حركة لسانها التقيلة.

– آه فهمت حضرتك، وشهادة الجيران صح، ليل رغم مرضها دا، ورغم أن عندها سرطان الدم، إلا أن كان ذكاءها ملحوظ بشكل كبير أوي في مسائل الرياضة فإجابات الأسئلة.

– وهي بتتعالج من سرطان الدم؟

– آه، بس الحقيقة مسألتش فين، خصوصا إنه جالها وهي عندها 7 سنين ونصحتهم لما جالها بمعهد الأورام بس معرفش عملوا إيه.

***

مكتب عمرو/ عودة من خيال قراءة ملف التحقيقات

خلايا المخ والعيون التي باتت تشتكي من السهر، فناجيل القهوة التي تنتهي فيملأها مرةً أخرى، مطفأة السجائر التي امتلأت بالسجائر المنتهية التي يدفسها دفسًا بمجرد انتهائها، انتهى من ملف التحقيقات ونظر إلى الصورة الموجودة بداخله، كانت صورةً حديثةً لليل وحنان معا، كانت ليل تجلس على الكرسي المتحرك بينما تحضنها حنان في صورة ينبع منها حب جم، كانت ليل سمينةً بشكل مرضي، وعيناها شبه مغلقتين، وشعرها ظهر قصيرا للغاية، فبدا من الصورة الشكل العام لحالتها.

وفجأةً، قطعت شروده طرقات الباب فأمر عمرو بالدخول، فدخل أحد العساكر حاملا ملفًا في يديه، ثم اتجه نحو المكتب وقدمه إلى عمرو وقال:

– تقرير مباحث الاتصالات يا فندم.

– شكرا يا شعبان.

قالها عمرو وهو يأخذ الملف منه، فخرج شعبان وأغلق الباب خلفه، ففتح عمرو الملف وبدأ بالقراءة به قليلا وكأنه يركز في شيءٍ ما، ثم أخرج ورقةً من درج مكتبه وبدأ بكتابة بعض المعلومات بها وأشعل آخر سيجارةٍ موجودة بالعلبة، وانهمك في الكتابة لمدة 5 دقائقَ، ثم

أخرج هاتفه النقال من جيبه وفتحه ليقوم باتصال، ظهرت تلك الصورة لتلك الخلفية لنفس الأنثى التي تثير مشاعره حزنًا مرةً أخرى.

ابتسم ابتسامةً حزينة تلقائيا وكأنه يحدثها داخل عقله، كيف حدث كل هذا؟ كيف تحقق وعد الدنيا لنا بأن نفترق دون النظر لأي شيءٍ وأي وعد تحدثنا به إلى بعضنا البعض؟ أقطعنا كل تلك المسافةِ لنصبحَ غرباء؟ أقطعناها لكي نفترقَ في النهاية؟ إذًا، لماذا قطعناها من الأصل؟ أما كان لنا من الأولى أن يبقى كلٌّ منا وحيدًا في طريقه ما دام سيصير وحيدًا في النهاية؟ اليوم علمت أن النهاية لا تختلف عن البداية في شيء إلا في التوقيت، التوقيت وحسب.

توقف عن التفكير وأخرج هاتفه، ثم بحث عن أحد الأرقام ليتصل بها، انتظر صوت حرارة الاتصال السخيفة حتى رد الطرف الآخر:

– ألو، سعد أنت لسه في المكتب؟ طب تعالالي بسرعة، بخصوص إيه؟! يا سعد هو إنت دكتور نسا ما تنجز، قضية حنان بتاعت بنسيون وسط البلد يا سعد، طب بسرعة.

أطفأ عمرو سيجارته في المطفأة ثم أخذ نفسًا من الهواء حوله حتى سمع طرقات الباب، فرفع صوته بأمر الدخول، فدخل سعد بقميصه الأبيض وبنطاله الأسود وشاربه الذي نظمهُ بعناية كبيرة فباغته عمرو بالحديث:

– التليفون ف مكتبك بايظ، أكلمك من الموبايل حبكت رغي أوي.

فضحك سعد وقال:

– مانت عارف مبحبش حد يسربعني، المهم وصلت لإيه؟

– تقرير مباحث الاتصالات بيقول أن البوست اللي اتكتب، اتكتب الساعة 2 ونص، ودا اتكتب ف نفس وقت الجريمة تقريبا، و اتكتب من جهاز اللابتوب ودا معناه أن الحساب بتاع الفيس متسرقش أو اتهكر.

– دا كده يصعب الموضوع أكتر، مسدودة يا صاحبي!

– عشان كده خليتهم يجربوا طريق تاني.

– مش فاهم!

– حسان القليوبي، شاب ف أواخر العشرينات، بيشتغل موظف ف دار نشر صغيرة كده، كان في محادثات بتتم بينه وبين حنان على طول آخرها كان اتفاق على الهروب من مصر خالص وخارج هذا البلد المتعفن والجو دا.

– يعني كان بيحبها؟

– أو غاوي نسوان سن الضياع.

وقطع حديثهم طرقات باب فأمر عمرو بالدخول، فدخل أحد الضباط الموجودين بالمبنى ولكن يبدو أنه ما زال ضابطا جديدا يحمل في يده ظرفًا وهو يقول:

– يا فندم في خبر غريب جالنا من العساكر بتاعتنا اللي موجودين ف البنسيون؟

فنظر عمرو له باهتمام وهو يقول:

– إيه قول؟

– في جواب جيه من البنك على البنسيون لحنان، الجواب بيقول إن الحساب البنكي بتاع حنان وصل في البنك لـ2 مليون جنيه.

فانفتحت عيون عمرو وسعد على مصراعيها، وتورمت أقدامهما فباتت تهتز، فنظر عمرو لسعد وقال:

– أو يمكن عشان مليونيرة؟!

***

منطقة مدينة نصر/ ميدان ممدوح سالم

بناية رقم 9 الدور الرابع.

هل تعلمون مواصفات شقة العازبين عن الزواج، الفوضى، الأجهزة الكهربية التي تتطقطق ولا يتم إصلاحها، تلك المصابيح التي ترتعش ضوءا فتضيء في أقل من فيمتو ثانية وتنطفئ في أقل منها، ولكن إضاءتها كانت تعطي شيئًا اللمعان فوق إبرة تلك الحقنة التي رفعها ذلك الشاب صاحب الملابس السوداء، كان السائل الظاهر من زجاجها شفافا محلولا لزجًا بعض الشيء، بدأ يصدرها نحو الضوء حتى حدد مكيالها وزرعها في وريد شخص ما أمامه حتى أدخل المحلول داخل جسده كاملا، كانت هي بشعرها القصير وشكلها السمين بعض الشيء وعينيها الضيقتين، بهذه الروح الطيبة والشكل البريء، تجلس على كرسيها المتحرك في هدوء ونوم عميق ببراءة طفل لا يدرك من الدنيا شيئا ولا يعرف من ذلك الكوكب شيئا سوى أبويه.

كان ذلك المحلول منوما وضعه في وريدها حتى تنام ولا تشعر بأي شيء، وبدأ يدفع الكرسي المتحرك بيديه، خطوات بطيئة من ثقل وزنها وضعف يديه من انهالات إبر حقن الماكس والمخدرات عليها كانت تضعفه على المدى البعيد، وتقتل ما تبقى من قلبه قتلا من الداخل، سمع صوت رنات هاتفه في جيبه، فأخرجه بعدما توقف عن الدفع ورد وقال:

– ألو، إديتلها المنوم خلاص... لا مفعوله حوالي 8 ساعات، أنا خلاص نازل من البيت، المهم الفلوس تكون جاهزة وكاش، حسان القليوبي مبيخلفش وعده، ساعة بالظبط وأكون عندك، سلام.

قالها ثم أغلق هاتفه ووضعه في جيبه واستمر يدفع قليلا حتى وصل إلى باب شقته، وضع مفتاحه في الباب وفتحه فتفاجأ من وجود شخص ما أمامه يرفع مسدسًا في جبينه، فتح عينيه على مصراعيها وكأنه لم يتوقع هذا، رفع يديه من على الكرسي المتحرك ثم وضعها بجانب رأسه بغاية الاستسلام.

فابتسم ذلك الشخص الذي أمامه، كان عمرو، وكانت في عينيه سعادة لأن حسان لم يهرب، يمسك مسدسه بقوة شديدة ومسدده نحو جبهة حسان فقال عمرو بعد رفع حسان ليديه:

– أيوه كده، أحب كده أوي.

فدفع حسان بيدي عمرو وضربه في وجهه فسقط المسدس من يد عمرو، وترك حسان الكرسي المتحرك واتجه نحو المطبخ وكأنه فكر في الهروب من سلم الخدامين، ففتح بابه فوجد سعد يقف أمامه رافعا مسدسه نحو رأس حسان فرفع حسان يديه فقال سعد له:

– سلم الخدامين، طريقة هروب قديمة أوي.

فأتت يد عمرو من خلف حسان لتقيده بقيد الشرطة وهو يقول:

– معاك عمرو ماهر وسعد حسونة، أمن وطني.

مبنى الأمن الوطني/ مكتب عمرو

«ما دمنا نعاني في جميع الأحوال، فلنجعل لمعاناتنا معنى».

– دي آخر حاجة كتبتها أمك يا ليل، أولا حمدالله ع السلامة قبل كل حاجة.

قالها عمرو فنظرت ليل له وابتسمت في هدوء تام، فقال لها عمرو:

– طبعا أنا مش هتعبك بأي تحقيق دلوقتي خالص، أنا عارف إنك تعبانة، لما تهدي هنتكلم في كل حاجة.

– ط. ط. طب وحسس. حسا...

فقاطعها عمرو:

– متتعبيش نفسك يا ليل، حسان اتقبض عليه بتهمتين، أول تهمة فيهم هو قتل أمك، والتهمة التانية المتاجرة في الأعضاء هو وعصابة كبيرة مكونة من دكتورورجال أعمال وبلاوي كده وسعد صاحبي لسة بيكمل التحقيق معاه، حق أمك هيتجاب، اتطمني.

قالها مبتسما، فهزت ليل رأسها فقال لها:

– أنا هسيبك دلوقتي هتابع التحقيق وجاي.

قالها فهزت رأسها وتركها مسرعا إلى باب المكتب فخرج منه، فوجد سعد أمام الباب وكأنه كان ينتظره فقال عمرو له:

– إيه يابني، خلصت مع حسان.

– خلصت، بس لازم تجيب ملف التحقيقات وتيجي تسمع إللي قاله فورا.

فنظر له عمرو متعجبا وقال:

– في إيه يابني.

– تعالى بس.

قالها سعد فسحب عمرو من يديه واتجها نحو مكتب التحقيق.

***

بنسيون وسط البلد/ بعد انتهاء التحقيقات

كان سكان البنسيون في حالة تجمع كبير وكأنه يوم الحشر في استقبال تلك الجميلة الصغيرة، يقفون صفًا وفي يدهم الورود والطعام مبتسمين بعد عودتها، حتى لاح ظلها عند باب البنسيون بعد خروجها من المصعد على كرسيها المتحرك في هدوء وطيبة تامة، كان عمرو من يدفعها بنفسه حتى غرفتها فاستقبلها الحاضرون بالتهليل والسعادة ومنهم صاحبة البنسيون وبقية سكانه وهم يقولون:

– حمدالله على السلامة يا ليل، كنا قلقانين عليكي وربنا ردك لينا بالسلامة.

فابتسمت لهم بروح الطفلة واستمر عمرو في دفعها وهو يقول:

– أستاذة عديلة، أنا أمرت العساكر يفكوا الشمع الأحمر من على الأوضة.

– حصل الصبح يا باشا، و أنا نظفت الأوضة وأهي جاهزة عشان تستقبل القمر بتاعنا.

فابتسمت ليل وابتسم عمرو واستمر في دفعها حتى فتح باب غرفتها وأدخلها وأغلق الباب خلفه، وأوصلها بجانب السرير في هدوء تام وقال لها:

– حمدالله على السلامة يا ليل، صحيح عندي ليكي مفاجأتين أحلى من بعض عايز أوريهوملك:

فنظرت له ليل بعينيها البريئتين وهدوء تام، فاتجه عمرو لأحد الأدراج وفتحها وأخرج أحد الأوراق منه وقال:

– دا وصل من البنك، البنك بيقول إن أمك كان عندها 2 مليون جنيه، ليل انتي دلوقتي مليونيرة، انتي معاكي فلوس تقدري تتعالجي بيها، تسافري برا، تعملي كل اللي نفسك فيه.

فابتسمت ليل لعدم تصديقها الموضوع حتى قطع ابتسامتها عمرو وقال:

– بس مش غريبة، أمك كل ورقها في البنك بيعتمد على الختم، أمك مكانتش بتمضي لأنها مكانتش بتعرف تقرا ولا تكتب ودي بشهادة موظف البنك، ولا كانت بتكتب المنشورات على الفيس، ولا كانت هي اللي بتكلم حسان، انتي اللي كنت بتعملي دا.

قالها ففتحت ليل عينيها على مصراعيها وكأنها بوابات جهنم، لم تصدق ما كانت تسمع حتى بدأت تتوتر وتحرك أصابعها فقال:

– وادي الحمد لله إثبات تاني، في مريضة بقصر الحبل الشوكي تعرف تحرك صوابعها وأطرافها وتتوتر، وبعدين اصبري إنتي متوترة ليه، ليل إنتي مش عيانة أو حاجة.

فقام عمرو واتجه إلى ذلك الدرج مرة أخرى وأخرج منه ورقا آخر ورماه إلى ليل بقوة وقال:

– ودا تقرير من دكتور عادل، إزاي مخدتش بالي من إنه هو وحنان أمك ولاد عم، عادل محمود سعيد سامي، حنان عوض سعيد سامي.

***

مكتب التحقيقات/ حوار بين عادل وعمرو

(فلاش باك)

– وهي بتتعالج من سرطان الدم؟

– آه، بس الحقيقة مسألتش فين، خصوصا إنه جالها وهي عندها 7 سنين ونصحتهم لما جالها بمعهد الأورام بس معرفش عملوا إيه.

***

البنسيون/ غرفة ليل

(عودة من الفلاش باك)

– غبي، اعترف عليكم، بس أنا اللي عبيط ومخدتش بالي.

فبدأت دموع ليل تنهمر من عينيها فقال عمرو:

– لا، لا، اصبري، عياط إيه دا لسة اللي جاي أقوى، ليل انتي متهمة بقتل أمك، انتي اللي ذبحتيها، و انتي اللي اديتيلها حقنة المورفين بمساعدة حسان طبعا اللي فهمك تعملي إيه بالظبط، حسان مكنش مأمن ليكي، وكان مسجل كل مكالمة دارت بينكم، غير محادثات الشات اللي متسجلة على الجهاز بتاعه واللي قلتي فيها إنك قتلتيها.

قالها واتجه نحوها في خطوات ثابتة ثم أردف:

– إيه رأيك لو تقومي كده ونتكلم بثقة أنا و انتي، سؤال واحد وعايز أعرف إجابته، ليه عملتي كده، ليه؟

انهارت ليل في البكاء ثم وقفت من مكانها وهي تستجمع قواها، وكأنها تحاول أن تنطقَ لأول مرة بدون اهتزاز لسانها، بدون أن تكونَ ضعيفةً وهي تتحدث دون أن تظهر في صورةٍ غير صورتها الحقيقة، وبدأت برفع صوتها:

– عايز تعرف ليه؟ أنا هقولك ليه! جربت تعيش في شخصية غير شخصيتك 23 سنة، جربت تاخد طريق غير طريقك بالإجبار، الناس تبصلك بعين الشفقة، الكل بيتعامل معاك على إنك ضعيف، جربت تعيش ف عذاب إنك حد تاني متداري جوا نفسك غير إنت، تتحول من شخصية البنت الصغيرة إللي كان كل حلمها حياة الأميرات، وفساتين وقصر وحياة حلوة، لبنت متقيدة جسديا وفكريا، ف صورة روح مش مجروحة وهي شايلة كل أنواع العذاب، 23 سنة، 23 سنة في صورة المعاقة، عايشة على كرسي بعجل و أنا بعرف أمشي، عايشة المفروض مفكرش و أنا عقلي يوزن بلد، أنا عاملة زي العصفور اللي قطعوله جناحاته وقالولو طير، احنا عندنا مبدأ غريب أوي في علاقاتنا مع الناس: مبدأ ممكن يدمر أقوى العلاقات اللي مبنية من سنين وسنين: مبدأ (طالما استحملت مرة يبقى شيل طول عمرك و انت ساكت).

أنا غلطت غلطة واحدة إني معترضتش لما فهمت، أنا عشت في الصورة دي طول عمري، حنان كانت بتخاف عليا من الحسد و أنا صغيرة خصوصا بعد ما خلفت أطفال قبلي وماتوا فافترضت الموضوع دا، و إني عيانة وتعبانة، لحد ما بقى عندي 5 سنين، لقيتني بعيش على المساعدات المالية من الناس اللي بتتبرع عشاني...

عجبها الموضوع، بدأت تديني أدوية وكورتيزون عشان تزود ف وزني، بدأت تفترض أن عندي سرطان الدم، وعادل يكتب تقارير طبية، والتبرعات تزيد، بابا يموت التبرعات تزيد أكتر و أكتر...

عرفت أنا بقيت مليونيرة منين؟ الفلوس دي بتاعتي، حقي، حقي وتمن عمري إللي قضيته على الكرسي، ذبحتها، ذبحتها وكأني بذبح كل سنين الذل، إنت مش متخيل دا؟ إنت مش متخيل الست حنان اللي كان الكل بيقول عليها جدعة وشها التاني عامل إزاي! ولا متخيل ليل المعاقة وشها التاني برضوا عامل إزاي! ويا ترى إنت يا حضرة الظابط وشك التاني عامل إزاي؟

قالت كل ذلك فنظر عمرو لبكائِها الشديد وكأنه لا يجد لها مبررا لما فعلت، وكأن قلبه رغم رقته لحالها لم يجد لها حلًّا أو شيئًا، فأخرج قيود الشرطة من يديه بدون أي كلماتٍ ووضعها في يديها التي كانت تخفي وجهَها بهما أثناء البكاءِ وتم القبض عليها، لم يعرف عمرو كيف سيكون حكمُها، ولا أعلم هل سيرقُّ لها القضاء أم سيحكم عليها بأقصى العقوبة، الدنيا ليس لها قانونٌ تسير به، بل إنها تسير لغايتها، ونحن نسير لغايتها، ولا يمكن لأحدٍ أن يتحرك عكس التيار، فكيف تتحرك عكس نفسك وتيار الدنيا هو نحن؟

***

مستشفى دار الفؤاد/ الغرفة

– تحفة يا يس.

استنشقت أنفاسي أخيرا بعدما قالتْها، وكأنني ذلكَ الشاب الذي سيدخل معهد الموسيقا العربية ليغني في لجنة يكونُ الحكام فيها عمار الشريعي وعمر خيرت وياسر عبد الرحمن، أصبحت تمثل وزنًا في حياتي، أصبحت مهتمًّا بها، وأصبحنا أصدقاء، عليَّ توجيه الشكر لتلك الصدمات التي دمرتني فجعلت مني ضحيةً وجعلت منها طبيبةً تعالج من جروح نفسي وجسدي ما تستطيع، وجعلت مني أسقط في سحر عينيها الدائم الذي يعطي لقلبي تلكَ الحياة التي كان يحتاجها.

قلت لها بعدما أخذت نفس الحياة بعد رأيها:

– بجد عجبتك؟

– جدا، قصة بوليسية ونهايات مش متوقعة، أنا بتلفت نظري الحاجات دي أوي، إنت عارف إن أنا كنت بحب أقرا الرجل المستحيل أوي وكنت من هواتها، بس كل دا راح.

قالتها بأسي فنظرت لها:

– وراح ليه؟

– عشان دخلت علمي في ثانوي وبعدين علمي علوم وبعدين كلية طب، والدراسة أوقات بتبقى حبل الإعدام اللي بتعدم بيه

كل هو اياتك وكل الحاجات اللي بتحبها في مقابل تحقيق طموح ممكن ميكونش من طموحاتك أصلا، وتكون مجبور عليه بس عشان مينفعش تخذل ناس بيحبوك.

– طب و إيه اللي حصل؟

سألتها ونظرت لها وكأن بعض الدموع بدأت تتساقط من عينيها فردت:

– خذلوني هما، مشيوا وسابولي شنطة ذكريات من مو اقف وصور وكلام وحبة نصايح تفكرني بهم و ابتسم وأعيط و أنا لوحدي في الأوضة.

بدأت مسح دموعها وهي تعتذر بلغتها الرقيقة ولسانها العذب:

– يس أنا آسفة، أنا نكدت عليك.

– نكدتي عليا، هو إنتي كده نكدية؟ إنتي لو شفتي ياسمين أختي وهي بتنكد على جوزها هتفتكري نفسك جيجي لامار.

قلتها فلم تتمالك نفسها وضحكت فضحكت معها وقلت لها:

– إيه رأيك أنا هديكي حاجات كده من المنشورات اللي كنت بكتبها مع نفسي كده، وحاجات منزلتش عشان تعرفي بس غلاوتك عندي وخصوصا إني بقيت بستنى رأيك أول بأول.

هزت رأسها بابتسامة عزباء بديعة، فأشرت لها على أحد الملفات الموجودة على الحاسوب، فأخرجت هاتفها وقامت بتوصيله، وأخذت

منها ما شاءت من الملفات على الهاتف بحجة قراءتهم وقتما شاءت، فهززت رأسي بالموافقة وبالفعل قامت بذلك.

وقطع حبال أفكاري ونظري لعينيها الجميلتين طرق أبواب الغرفة، ربما انزعجت قليلا ولكني أمرت بالدخول، ففتحت الباب يدٌ نحيفة من رجل عجوز مليئةٍ بالعروق الظاهرة، دخل الرجل أصلع الرأس النحيف بشكل شديد يسير على عكاز مبتسمًا ابتسامة تجعلك ترتاح نفسيًّا له، شعرت وكأنني أعرفه من زمنٍ بعيد بسبب راحتي النفسية وبشاشته وحبه هذا، نظرت إلى قمر فرأيتها تبتسم له بشدة وهي تقول:

– عم محاق العسل، إنت مش دكتور جلال مانعك من الحركة الكتير.

فابتسم لها وقال:

– دكتور جلال قاللي بلاش إجهاد، و أنا مش بجهد لما بشوف القمر.

فضحكت وضحك هو حتى وجه النظر لي مبتسما وقال:

– يس مدين، عرفتك من صورتك إللي بتطلع في الجرنال، بتعجبني القصص اللي بتكتبها والجو ابات اللي بتنشرها، كنت متابع جيد ليك.

ابتسمت وقلت له:

– شكرا يا أستاذي والله بجد، مش عارف أقولك إيه.

– متقولش حاجة، أنا كان نفسي أجيلك أسلم عليك، بس دكتور جلال كان محكم رأيه حبة بس، المهم خف بسرعة وارجع لأني كنت بستمتع بأسلوبك لما بقرالك الرواية والقصص والباب بتاعك في الجرنال، ولو عوزت حاجة أنا أوضتي 206 واسمي محاق.

ابتسمت له وقلت:

– شرف ليا يا أستاذ محاق، و أنا لما أعرف أقوم من ع السرير أو إيدي تخف لازم هكتبلك حاجة عشان تسليك لا تقلق.

فابتسم لي واتجه نحو باب الخروج مودعا قمر ثم عاد لها وقال:

– دكتورة قمر، أقدر أستلف تليفونك، محتاج أعمل منه مكالمة، وهرجعهولك تاني.

– آه طبعا يا عم محاق، خده أهو و أنا هجيلك كمان حبة أخده اتكلم براحتك.

ابتسم لها وودعته بابتسامة وضحكة واسعة حتى خرج وأغلق الباب خلفه، فنظرت لها متسائلا بعيني دون أن أنطق فقالت:

– دا عم محاق، مريض كانسر، حولوه على معهد الأورام بس بيجيلنا كتير بسبب تعب ف الشريان التاجي والقلب، وبيعمل جراحات. راجل سكر، دمه خفيف أوي.

– بيشتغل إيه؟

– والله ماعرف، أنا سألته كتير بس كان بيلتزم الصمت... بس عموما هو راجل مثقف أوي، عبقري، قرا أكتر من ألفين كتاب، وحارب ف 73، ولو قعدت معاه هتسمع كتير أوي من أساطيره وحكاياته.

ابتسمت لها وقلت:

– الزمن دا لعنة، في يوم تصبح طفل كل طموحك حضن ماما ومصروف بابا، تكبر شوية يبقى كل طموحك قعدة لوحدك عشان مزاجك و إنك تقلل المصروف حبة عشان تريح بابا وماما، تكبر أكتر يبقي طموحك تشتغل والوحدة تزيد، تكبر أكتر ف الوحدة تبقى أمر إجباري سواء ف حياتهم أو وفاتهم، والشغل اللي كان أمنية بقى شيء بتكرهه وروتيني ومقرف، فترجع تشغل مساحة وحدتك بزوجة وطفل يملوا حياتك، وفترة و ابنك يرجع بنفس أمنياتك القديمة ويلف نفس دايرتك، والزوجة تموت، والشغل يا يكمل معاك يا يقف، وساعتها ترجع تتمنى ف وسط كل دا حضن ماما ومصروف بابا يرجع تاني عشان ترتاح، دنيا عجب، والإنسان مبيملاش عيينيه غير التراب.

ابتسمت لي ابتسامة أظهرت إعجابها بما قلت فبادلتها نفس الابتسامة فقالت:

– يس، إنت عظيم.

ضحكت لها بشدة فاتجهت نحو باب الغرفة للخروج منها وقالت:

– أنا هقرا الحاجة إللي بعتها، في عناوين لفتت نظري، وهقولك رأيي.

هززت رأسي مبتسمًا فضحكت واتجهت نحو باب الغرفة لتخرج فناديتها مسرعا، فنظرت إليَّ بجمالها الساحر كعادتها فجعلتني أبتسم وحدي فقلت لها:

– قمر، في ورقة موجودة في الدرج مكتوبة ليكي، حسيت منها إني عايز أقولك حاجة، وكل شوية في ورقة كده هديهالك ممكن تاخديها وتقريها.

نظرت إليَّ بتعجب ولكنها ابتسمت وقالت:

– ماشي، حاضر.

اتجهت نحو الدرج الموجود بالدولاب الواقع بجانب سريري، وفتحت أحد الأدراج الموجودة فيه فوجدت تلك الورقة، فتناولتها في يديها ونظرت إليها بعينيها بينما كنت أتابعها. كانت الورقة تحمل شيئًا ولو واحدًا بالمئة من مشاعري نحوها بعد فترة جلوسي في المستشفى ورؤيتي لعينيها، كان مكتوب بها:

(بدايةً تضيق الحياة حلقات، وتتسع حلقةً حلقة بعد قليل، فترى بعد الفرج صفات في من حولك التي لا تراها إلا وقتَ الشدائد، هل تعلمين، قد لا تفهمين شيئًا من هذا ولا تدرين سبب تلك الورقة، ولكن اعتبريها مفتتحًا لعدة أوراق قادمة، ولكني بعد عدة أيام وجدت وسط

الضيق سببًا جعلني الله أحيا بسببه بعدما ظننت أنني حي لأن القدر يريدني حيًّا لا لأي شيء آخر).

وجدتها تبتسم في عدم فهم وهي تقرأها، لكنها كانت سعيدةً للغاية، شعرت بهذا في داخلها، وبعد أن أنهتها نظرت لي مبتسمةً تحاول الفهم فقلت لها:

– أنا عارف إنك مش فاهمة حاجة، بس بعدين هتفهمي.

فنظرت لي بابتسامتها العذبة وقالت:

– و أنا هستنى البعدين دا.

واتجهت نحو باب الغرفة مسرعةً لتخرج منه في حرج، فابتسمت وأنا أستلقي على سريري بنفسٍ عميق أخرجه من أجهزتي بدون أي أفكار خارج أحداث اليوم وأخبار الطبيب السعيدة أنني سيمكنني الجلوس على كرسيٍّ متحرك أخيرا، بيتر سيأتي لزيارتي هذا الأسبوع لإطلاعي على آخر التفاصيل، أنظر للسقف فأزور ذكرياتي قليلا حتى طرقت في بالي جملةٌ قالها ذلك العجوز محاق:

– بتعجبني القصص اللي بتكتبها والجوابات اللي بتنشرها، كنت متابع جيد ليك.

تذكرت تلك الجملة، الخطابات التي كانت تصل إليَّ فأعدل عليها، أو ربما بعض الخطابات التي كنت أؤلِّفها بنفسي في إحدى المفكرات في مكتبي، كيف نسيتها، أكيد يوجد بها شيءٌ قد يصلح في تلك الأزمة.

ضربت جرس استدعاء الممرضات الموجود خلف سريري وأنا على عجلة من أمري، فدخلت إحدى الممرضات ذات الملابس القصيرة التي أحبها، ولكنني لم أنشغل بساقها تلك المرة، بل انشغلت بأن أحدثها:

– بعد إذنك في الاستقبال تحت أنا سايب رقم أستاذ يوسف وهدان، اتصلوا بيه وقولوله مفكرة الجوابات اللي ف الدولاب أنا عايزها، بس بسرعة الله يكرمك.

فهزت رأسها سريعا وربما تلك المرة التفت لساقيها، ولذلك علمت بأن الله لن يشفيني لأنني ما كنت أتطلع لعلاج ساقي كما كنت أتطلع لسيقان تلك الفتيات التي كانت مستساغة لعيني، عليَّ الجزم أن الرجال لا يحبون بعيونهم مطلقًا بل يحبون بقلوبهم وحسب، ولكن العيون خُلِقت لتنظر إلى اختلاف الجمال بين النساء من حولك وبين تلك التي تحبها فتقول يا ليتني ما أحببت مطلقا.

***

الغرفة/ بعد مرور ساعة ونصف تقريبا

لم أشعرْ بالهدوء كما اعتدت، وكأنني أنتظر خبر براءتي من قضية أو جريمة لم أرتكبها، أنظر إلى مقبض الغرفة بتركيز شديد منتظرًا أن يفتح يوسف الباب بطريقته وعادته السخيفة، كنت أحدث نفسي، سيجدها، سيتبدأ في عملك، ستصل للنهاية ولن يحدث شيءٌ سوى أنك سترتاح من ذلك الصراع، لن تفرح بنجاحك ولا بإنجازاتك، فقط سترتاح من تسلق الجبل ومن الحفر في الصخر، ستصبح سعيدًا فقط بأن كل الضغط قد انتهى، وأنك حي، وهذا فقط ما يكفي.

وفجأةً سمعت طرقات الباب التي قطعت شرودي، لم ينتظر إجابتي فدخل يوسف مسرعا وألقى المفكرة في وجهي، ضحكت وسعدت عندما وجدها، وكأن روحي رُدَّت إليَّ مرةً أخرى. أخيرا سنجد قصةً نكتب عنها من تلك الخطابات وسنضيف لها الكثير.

نظرت له وقلت:

– أنا فرحان إنك لقيتها، بس لو أنا إيدي متصلحة هستناك تكتبلي ليه، ما تيجي تفتحها يالا وتقلب.

– آه نسيت صحيح.

ضحكت أنا وهو فاقترب بجانبي وفتح المفكرة:

– وأنا جاي كنت بقلب لقيت جواب من واحد كان بيصور بالكاميرا، الصور بتجيب حاجات غريبة، هو إنت فني كاميرات بعد الظهر.

نظرت له نظرة احتقار فرفع يده معتذرا:

– سوري، أنا آسف، هقلب وأنا ساكت.

فتح المفكرة وبدأ يقلب في صفحاتها بهدوء، عناوين كثيرة وخطابات أكثرَ كنت أدونها أولًا بأول، أعتقد أنني لو كنت أحصل على قرش مقابل كل حرف دونته في تلك المفكرة لامتلكت مالا يكفيني لشراء أحد الأندية في السعودية وإفساد الرياضة في العالم أجمع وكتابة منشورات على الفيس بوك؛ أحاول فيها الإثبات لنفسي أنني أعظم من خُلِقَ، فيظهر شاب مصري في التعليقات ويثبت لي أنني دجاجة أبحث فقطْ عن شيءٍ يثبت أنني لم أُذْبَح وأنني ما زلت بعظمتي.

نظرت إلى العناوين (عذاب الجسد– خيالات مريضة– البقاء للأقوى– مفكرة الـ11).

لفتت نظري ذلك الاسم، مفكرة الـ11، أمرت يوسف بالثبات كي أقرأها خشية أن تكون قصةً مكررة وما إلى ذلك، ثم أمرته بالجلوس وتجهيز الحاسوب، فما وجدته شيء قد يبعث في روح التفكير عن تلك المرأة القعيدة.

***

قصة/ مفكرة الأحد عشر

(الصياد والفريسة)

(داليا قشطة) و(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

لم يمض على سكني بالبناية المقابلة له ستة أشهر، وها هو التقط الطعم كما توقعت. في البداية ظلَّ يرقبني من خلف منظارِه وهو بنافذته لمدة شهرين متتالين؛ يرقبني في صمت يسرع كلما أضأت نورَ غرفتي، يمشي بخجلٍ مصطنع أمامي وأنا أجلس في شرفتي يسترقُ النظرَ لي دون كلمةٍ ليبدوا كشابٍّ خجول منطوٍ تأمنه على نفسك.

ثم بدأ في التودد لي رويدا رويدا بدأ بإلقاء التحية، ثم حاول أن يظهر كرم أخلاقه في مد يد المساعدة لحمل احتياجاتي، ولكني لم أبادره البشاشة في المرات الأولى بل أظهرت له وجه المرأة المتشككة، وهذا طبيعي لامرأة مقعَدةٍ تجاوزت الأربعين. وحيدة ولكني لم أسئ معاملته طويلا، بل مددت له حبالَ التعارف بهدوءٍ حتى يشنقَ بها نفسه، والآن عليه أن يشعر إنه الفريسةُ وليس الصياد فغدا لناظره قريب.

يبدو أنكم لم تعلموا قصتي بعد، أنا أدعى (ليلي)، أعيش في تلك البناية بعد وفاة زوجي منذ 5 أعوام، لم يكن لديَّ فكرةٌ عن الوحدة،

فقد كانت حياتي مليئةً به وحسب، لم أرد شيئا إلا وحققه لي، كنت ربة منزل وكان يعمل أمينًا للمكتبات في دار الكتب، لذلك لا تتعجب عندما تجد في منزلي العديد من الكتب التي لا يمكن أن تتخيلها، وبعد وفاته، لم أجد شيئًا يسلي لي وحدتي سوى قراءة تلك الكتب، كتبٌ في التاريخ والدين والعلوم، وكتبٌ من كل الأنواع التي قد تتخيلها وقد لا تتخيلها.

كانت الحياة غير طبيعية بعد وفاته، ولكنها ليست بغريبة، أي حياة قابلة للتعايش، حتى ذلك اليوم الذي حدث فيه شيءٌ غيرَ كلَّ شيءٍ: كنت أبحث عن كتابٍ معين لأخذ مقتطفات منه لأكمل مقالاتي التي كنت أكتبها لنفسي وحسب، بدأت بالبحث في المكتبة وكأنني أُصِبت بفقدان ذاكرة جعلني تائهةً لا أتذكر مكان هذا الكتاب.

وبينما أبحث وجدت شيئا لم أتوقع أن أراه في مكتبة زوجي، كانت مفكرةً صغيرةً يضعها بين الكتب، مكتوبةً بخط يده، كانت أول مرة أراها وكانت تلك التي غيرت حياتي تماما، شيءٌ بديع وهو إحساس أن تملكَ القوة بين يديك، أن تشعر أنك صيادٌ يتصنع الضعفَ حتى ينالَ من فريسته بكل قوة، كأساليب الثعالب وربما أقوى، فما رأيته لم يكن يمتُّ لعالم البشر بصلة، وذلك الذي جعل من ذلك الجار المسكين أن يكونَ فريسةً سهلة.

وبرغم كم الكتب التي قرأتها في علم النفس وغيرها إلا أن هذه المفكرة كانت تحوي سرًّا أعظم يحتاج إلى الوحدة والتركيز بعمق، واختيار ضحاياك بدقة، وجاري هذا هو الضحية المثلى؛ تنطبق عليه جميع الشروط.

كلفني البحث عنه كثيرا من الوقت، فكما يُقَال: الدم لا يُطَهَّر إلا بالدم، ولقد اخترت بقوةِ القدير لتطهير ذنبِه، وسأقوم بمهامي على أكمل وجهٍ، فلقد أعدت العدة لكل شيءٍ وهو صيد سهلٌ، فالطامع يكفي أن ترمي له الفتاتَ لتتصيده، والهيئة التي اخترتها لنفسي سهلتْ لي خداعه حقًّا ما أجمل بنات إبليس!

ما لم أكن أفهمه وأعلمه هو أن تلك المفكرةَ تحوي على سرٍّ خطير وتعويذة، أو كما يقول البعض عقد، عقد شراكةٍ بين زوجي وإحدى بنات إبليس في مقابل تقديم قرابين لها، وتلك القرابين تكمن في ضحايا من البشر، ضحايا يأتون إلى الفخِّ بأنفسهم، لا يهم كيف يأتون ولكن الأهم كيف تطمعه ليكون بين يديك وقتما تريد، كانت التعويذة تشترط وجوده في مكان أو مركز يحدده مقدم القرابين، وهو تكوين نجمة من خمسِ شموع، وأن تجلس الضحية بين الخمسة شموع، بينما تقرأ تعويذةً تجعل منه لا يستطيع التحركَ حتى تذبحه كفريسةٍ سهلة مقدمًا دماءه بين الشموع، وإذا قبلته تنطفئ الشموع، قد تسمع هذا في كثيرٍ من القصص ولكن لأجل الحق، فإن عقد الشراكة له أساليب كثيرةٌ في التحضير.

قد يتساءل الجميع ما الذي جعل مني ضحيةً لتلك التعويذة، أقول أن الفضولَ بابٌ أوسع، ومع القراءة تكون قد حضرتها بذات نفسك، وتلك كانت البداية، وفي أول مرة رفضت رفضًا شديدا فما كان مني إلا أنني تعرضت للعذابِ بأوجاعٍ في جسدي وكأنني أُضْرَب من أشخاصٍ لا أراهم، وكأنني أحترق في جلدي وجسدي وربما كانت تلكَ الحروق تظهرُ حتى بدأت بتقديمها، ولأن الدمَ لا يتبعه إلا الدم سرت في هذا الطريق

ولم أستطع الخروجَ عنه، وللعلم، لم يكن جاري الفريسة الأولى، ولكنه ربما كان الأسهلَ.

كان عليَّ إقناعه بزيارتي وذلك كان سهلا فهو تواقٌ لهذا، فهو يظن إني ضحيته فهو قاتلٌ للنساء الوحيدات، لا علم لي بسبب ارتكابه لتلك الجرائمِ، ربما يعود هذا لعقدة عنده، ولكن ما يهمني أنه لبى دعوتي على العشاء وكما كان ينصب لي فخًّا كنت أعد العدة له فما أن استضفته بوجهي الملائكي وأغدقت عليه كرمي وأظهرت له ضعفي حتى بدأ هو في محاولته الأولى للتقرب مني لينال مني كما سبق لضحاياه ولكني بادرته بطلب غريبٍ ربما دهش عند سماعه، ولكنه ما كان ليرفض فهو للآن يبغي إرضائي فهو لن يتجاهل رؤيةَ حارس العقار له وصعوده لمنزلي بمرأى ومسمعٍ من الجميع، هو من يحتاج إلى قتلي في هدوءٍ وأنا أحتاج منه بلعَ الطعم للنهاية لذلك بادرته بطلبي.

وكما توقعت تماما فقد ابتلعَ الطعم، وقد كان طلبي هو صعوده من إحدى السلالم الخلفية للبناية حتى لا يراه أحدٌ ليس كذلك وحسب، بل أن يحضرَ هو الشمع بين يديه بحجة أنني أود تحضيرَ ذلك الجو الرومانسي الذي ربما يكون هدوءًا يسبق العاصفة التي يتخيلها، وكأنما أجعل منه يصدق أنه ذلك الصياد الذي يقترب من فريسته بكل سهولةٍ، وبالفعل، نجح وكان في ميعاده أمام منزلي، طرق الباب، فابتسمت بعد شعوري بانتصارٍ وفتحت ذلك الباب حتى كان أمام عينيَّ، يبتسم فخرًا بانتصاره البديع في الوصول إليَّ...

قال لي:

– لم أكن أتوقع كل ذلك التعب للوصول إلى هنا.

فقلت له:

– من أراد كل شيءٍ خسر كل شيء، وللحصول على ذلك اليوم الرائع علينا ببعض التعب.

فابتسم إليَّ، ودخل إلى المنزل، وجدني أحضر بعض العشاء فابتسم وأخرج من جيبه الشمع وقال:

– تلك الشموع لذلك الجو الرومانسي الذي تريدينه.

فقلت له مبتسمةً في وجهه ابتسامةً جميلة وفي عقلي ابتسامة شيطانية:

– استعد، فسترى ما لم تره بعد.

تناولت أعواد الثقاب وأشعلت الشموع فيما طلبت منه أن يرفع البساط من على الأرض تحتنا، لا أنكر نظرات الدهشة التي بدت عليه ولكنه طاوعني للنهاية، وما إن فعل حتى وجد رسم للنجمة الخماسية يتوسط الحجرة، فزعَ في البداية ولكنه حاول أن يستجمعَ شجاعته فسألني بلسان متلعثم:

– ما هذا؟

أجبت بهدوء:

– نوع من المرح لم تألفه من قبل، ستضع الشموعَ عند قمم النجمة الخمس وتجلس بالمنتصفِ، وسأشعل لك بخورًا هنديًّا لا مثيل له سيجعلك تسترخي، وإن أغمضت عينيك بعمق سترى أعجوبةً لم تكن لتراها من قبل، وربما رأيتني أسير على قدمي أو تراني أصغر سنا، أو تصبح أنت أقوى مما أنت أقوى عليه.

تبسم مستهزأ:

– يبدو لي نوعًا جديدًا من الممنوعات.

تبسمت:

– بل هو الأقوى منها.

جلس برغبته وأغمض عينيه وأشعلت البخور وأنا ألقي تعويذتي وأتممتم لتحضير سيدتي ابنة إبليس، وأثناء قراءتي نظرت بجانبي في عدم تركيز وجدت أحد الجيران يرمق إليَّ من النافذة في هدوء، شعرت أنني مراقبةٌ، اتجهت نحو الشرفة وأغلقتها، وعدت أكمل في هدوءٍ شديد ولكن ما حدث كان مرعبا ولم أتوقعه.

لم أتخيل ما كنت أراه، لقد كان أقوى من أيّ خيال، لم أبدأ في إكمال التعويذة حتى وجدت رأسه تطير من فوق جسده ودمه يتطاير في كل جهاتِ الغرفة وكأنه مسبحٌ أحمر ساسبح به، وما رأيته هو أن الدم غطى شكل النجمة الخماسية، بل وكون بنفسه شكل نجمةٍ خماسية من الدم، الدم وحسب، كان ذلك آخر ما رأيته قبل أن تنطفئ الشموع،

ربما ولأجل الحق شعرتُ بشعور الخوف لأول مرةٍ منذ فترة طويلة برغم أنها لم تكن أولَ ضحية، ولكن الأمر كان مختلفا...

لم أكن أعرف ماذا أفعل، انطلقت محاولةً إضاءة نور الغرفة لم يضئ، بدأت بالصراخ بفزعٍ وجنون حتى أنارت الشموع مرةً أخرى، حتى تلقي عيني على شيءٍ لم أتخيله، كل جثث الضحايا التي قدمتها موجودة بغرفتي، 10 ضحايا، يكونون بترتيبهم كلمة (المقاوم)، صرخت من الفزع، ومن ذاكرتي وقراءتي وجدت أن المقاوم هو أحد أسمائه ذلك الذي إذا حضرته فلن تنتهي من عذابه قط، ولن تستطيع الوقوف أمام كل ما قد يفعله... إبليس.

لقد وقعت في الفخ، لقد كانت التعويذة طعمًا لي، وقد غرتني، فقد كان يلزم إبليس ليظهر التضحية بعشر جثثٍ كلها آثمة وكأنه يستمد من أرواحهم الشريرة الحياة ليعودَ في صورة آدمية ويا ويلي أنا من مهدتُ له الطريق للخروج، ولكن هل سيعاملني معاملةً كريمة لأني من حررته وأعدته للحياة بشكل آدمي، أم إني سأكون أول ضحاياه، ولكن الأبشع من هذا السؤال الذي جال بخاطري هل كان زوجي على علم بمضمون التعويذة، ولم احتفظ بها بين كتبه في مفكرة مهملة.

ربي، لقد كان خادما له كل هذه السنوات، ولكن لو كان عبدا مخلصًا بالفعل لم لم يقتل هو عشر جثثٍ يعيده بها، تساؤلات تفتك برأسي وقدمي كأنها شُلَّت بالفعل، أعجز عن الهروب ويقتلني الفضول لمعرفة سر المفكرة فهذا حقي إن كنت سأموت بسببها.

لم أستطع فعل شيء سوى أنني حاولت الهروب من الغرفة، خرجت على كرسي المتحرك، وكانت الظلمة تكسو كلَّ بقعة من بقاع الشقة، حاولت التحركَ، ولكنني شعرت بقوةٍ ما تمنع حراكي، وكأنني أُصِبْت بشللٍ تام، شللٍ في جسدي، وربما تفكيري أيضا، فلم يكن في بالي شيءٌ سوى الصراخ، الصراخ وحسب، ولكنني حتى لم أستطع فعل ذلك، فطبقات صوتي لم تكنْ تخرج من بين أحباله مطلَقًا، وكأنك حكمت عليها بالإعدام أو الاختفاء، وهنا بدأت عيناي باللمعان باللون الأحمر أو البرتقالي المشتعل، فكان انعكاسا لما تراه عيناي.

كنت أرى نيرانًا تحيط بي من كل ناحية، وليس كذلك وحسب بل كان لونها يتحول للأسود قليلا، ليس بسبب الدخان ولكن كأنني أرى النار إلها يأمر، وكأن النار تخلق رجالا يرتدون ملابسَ سوداء تغطي أجسادهم ووجوههم، فلم أتبين ملامحهم، يظهرون من بين ذلك اللهيب، كانوا 11 شخصا، بملابس سوداء لم أتعرف على أشكالهم، أصواتٌ تعلو، ودخان يخنق حلقي ويغلق أنفاسي ويكتمها، وشلل تامٌّ في حركاتي فلم أستطع الالتفات لأي شيءٍ حولي وكأن الرعب والحزن والخوف شيءٌ ليس باختيارنا رؤيته أو إحساسه، وإنما حكم الحياة به إجباريا.

وفجأة انطفأت تلك النارُ وأخمِدَت تماما وكأنها لم تتولد حتى، بدون أي سابق إنذار بانخفاضٍ بشعلتها، وظهرت أضواء الشقة مرةً أخرى وعادت، أما هؤلاء الأشخاص فليتهم اختفوا مثل النار التي أُخْمِدَت وانطفأت، كانوا يقفون بملابسهم السوداء وغطاءٌ حول أوجههم يخفي ملامحَهم، فبدأوا بخلع غطاء أوجههم أمامي، حتى انكشفت ملامحهم، كانوا الضحايا الـ10، هؤلاء الذين قتلتهم وقدمتهم قربانا بيدي، أما

الحادي عشر فكانت الصدمة عندما رأيته أمام عيني: كان زوجي، الذي تُوُفِّي، يظهر أمام عيني بملامح تشبهه، ولكن بعينيه وشعره لم يكن هو، كان منظره مرعبًا، لم أستطع التحدث، وكأن صوتًا لا يخرج مني مطلقا حتى بادرني هو بالحديث، كان زوجي ولكن بنبرة صوت مختلفة:

– لقد كنتِ الأمة الحق، ونجحتِ في الاختبار، وقدمتِ قرابين عجز الكثيرون عن فعلها، فما كان منه أن يستمدَّ قواه إلا من كل آثم، وما كان من كل شخص إلا أن يهرب بالإيمان، لقد أحسنتِ الاختيار، لقد نجحتِ.

وفجأةً اختفى كل الأشخاص بكل شيء، بكل شيءٍ يظهر أمام عينيَّ، حتى سقطت غاشية، ولم أستيقظ إلا ربما بعد أيام معدودات، أو ربما شهور، لم أشعرْ حينها بأي شيءٍ، ولكن استيقاظي لم يكن إلا لسبب واحدٍ لم أتخيل أن أفعله أو أن أبدأ به إلا وهو:

إحضار الفريسة القادمة.

***

بعد عدة أيام

شرفة الغرفة...

ما بعد الظهر...

نسيم العصر...

كنت أستمع لتلك الجملة من أبي دومًا حينما يأتي هذا الوقت، كان يعشق الجلوس في أرض جدي في الصعيد في فترة معيشتنا في بلاده في هذا الوقت بالتحديد، كنت أراه يجلس، فيحضر كوبا من الشاي ويجلس على الأرض رغم طينها التي كنت أشعر بشيءٍ من الاشمئزاز منه فكان يرى فيَّ أنني كما يقولها الآباء دومًا (خرع)، فكنت أشعر بالاشمئزاز من الجلوس على الأرض، من حمل الطيور والأرانب، من دخول أي مكان يحتوي على رائحة كلب حتى، ولكني كنت أقف أستند إلى أحد الأشجار أراقبه عن كثب، والهواء يحمل شيئًا من نسيم بارد لطيف يحيي العظام وهي رميم، نسيم العصر.

كنت أرى في أبي دوما أنه مثلي الأعلى، برغم غلظته بعض الأحيان إلا أنني لم أشك لحظة في حبه لي.

في إحدى المرات من هذه الجلسات ومن هذا النسيم وكان حديثنا عن هذا الأمر وعن الخوف وبعضِ الحريات وحينها وجدته قال جملةً استهزئت بها، قال لي أنه سيأتي يومٌ من الأيام سيجبرني فيه القدرُ على فعلِ أشياءَ كرهت فعلَها، ومواجهةِ أشياءَ خفت منها، وأنني في يومٍ من

الأيام سأضطرُ لأكون شخصًا آخر مضطرًا لمواجهة الأيام بوجهٍ وأقنعة لم أتوقع أن أكونها وقتها، وجدته يبالغ بعض الشيء، وأن العوامل الجوية قد تغير في تضاريس الأرض ولكن الصخور ستبقى صخورًا في النهاية.

حتى دقت الساعة وانشق القمر أمام عيني، وسمعت الطبيبَ في المستشفى يعلن خبرَ وفاته بعد صراع مع أزمةٍ قلبية، وكأنني شعرت بشيءٍ من قلبي سُحِب مني، وكأنه انشقَّ كبحرٍ موسي وكلماته التي كان دائمًا يلقيها إليَّ من نصائح أو كلام كنت أشعر بالضجر منه، صار يدق في أذني كأجراس كنيسةٍ معلنة أنها ذكرى ميلاد السيد المسيح...

وجدت أنني نزلت إلى تحت التراب وجلست عليه وأنا أدفن أبي، وجدتني أحمل الطيور بيدي إلى أختي لكي تحضرها بعد الوعكة الصحيةِ التي أصابت أمي، وجدتني أشتري كلابا بعد محاولةِ أحدهم سرقةَ المنزل بل وأطعمها بيدي تلك...

وجدتني شخصًا آخر، لا أجد طاقةً للحديث أو الكلام، لا أجد طاقةً لتحمل شيءٍ فوق مسئولياتي، لا أجد طاقةً لبشر يفكرون من أسفل ظهورهم ويضعونَ أحذيتهم في أدمغتهم بعددٍ من تفاهاتهم التي لا حصرَ لها، فاقتصرت دائرتي على أختٍ وصديقين فقط، ووجدت أن الصخرَ قد يتغير بعوامل البيئةِ فيصبحُ رملا، أو صخرًا هشًّا، أو ربما ركيزةً تسمح لبناء جمل تتغير وتحتمل كل شيءٍ.

– من أكتر الحاجات اللي قريتها ودخلت دماغي وعجبتني جدا.

قالتها ونحن نجلس سويًّا في شرفة الغرفة بعد مغادرتي أخيرًا ذلك السرير القذر، صحيح أنني تقيدت في كرسيٍّ متحرك، ولكن يكفيني أن أغير من نطاقِ حركتي التي لم أكن أحركُ فيه شيئًا سوى رقبتي.

– بجد يا قمر؟

قلتها وكأن عيوني تكاد تخرج قلوبا من عينيَّ فتطير كفراشات من حولها، تطير بسعادة فور ابتسماتها وهي تنطق (آه طبعا بجد) فتثير في نفسي بابتسامتها شيئًا من الفرحة التي تمنيتها طيلة حياتي.

– صحيح بقا هو عمو كان بيشتغل إيه؟

كانت تسأل، فنظرت لها في هدوء وربما تغير صوتي لتذكر والدي فقلت:

– كان طبيب شرعي.

– عشان كده في لما كتبت (ليل) كان في معلومات كتير عن الطب الشرعي.

هززت رأسي بابتسامة فقالت:

– واضح إنك كنت بتحبه أوي.

– كان صاحبي، يمكن كنا بنختلف كتير جدا وخناقات، لكن لحد ما توفى، كنا أعز الصحاب.

نظرت لي في حزن وقالت:

– الله يرحمه، هو توفى ازاي؟

نظرت لها وكأنني أتذكر كل شيءٍ، أتذكره عندما هرب من عمله بسبب بعض المشاكل، عندها اختفى كي يبعد عن ياسين وأخته أي خطر، وعاد لهما في ليلة باردةٍ ممطرة بعد 5 سنوات من الغياب كان يراقبهما فيها من مكان بعيد، أخبرهما أنه قد يختفي لزمن ولكنه معهما لن يفارقهما، حتى أتى لهما خبر وفاته، ومن يومها خسر يس كل شيء.

شعرت قمر بشرودي، فأحست أنها أدخلتني في دائرة من الأحزان والذكريات عن دون قصد حتى أخرجتني من ذلك الشرود وقالت:

– وفي حاجة كمان عجبتني أوي كنت انت كاتبها، استنى هقرهالك.

الهدوء...

ذلك الهدوء النفسي الذي لم يعتد عليه، كيف لحياته أن تسير بلا مشاكل، بذلك الضوءِ الخافت الذي يكفيه ليقرأ كتابًا في أناء الليل دون أن يزعجه أحدٌ من أهل المنزل الراحلين، الضوء السهاري.

هل شاهدت يومًا فيلما لحياةِ الجوكر بعد أن قتلَ باتمان، أعتقد أنه قد يموت في إحدى المصحات النفسيةِ كبيرَ السن، ولكنه قد يموت بعد أن يُصَاب بمرضٍ يجعله عاقلا، الآن فقط علمت لماذا لم يود الجوكر قتله في أي وقتٍ، الآن علمت أهميةَ كل الجملِ التي قالها له في مشهد التحقيق، (أنا لا أريد قتلك، هل أقتلك وأعود للتعامل والقتال مع رجال العصابات الحمقى بملٍل، أنت تكملني يا صديقي).

الهدوء قد يجعل الجوكر عاقلا، أما عدم المشاكل فقد يجعل مني أنا عاقلا بشكلٍ غريب، أعتقد أن السعيَ في حل المشكلةِ ممتعٌ أكثرَ من حل المشكلةِ في حد ذاته، تلك السكينة التي قد يسميها البعضُ اكتئابًا أو توحدًا أو هدوءًا أو قرفًا ما هي إلا آلية للتعامل والانتظار، ما هي إلا اشتياقٌ لعودة التيار الكهربائي من جديد واختفاء عظمة النور السهاري والبحث عن سبل إضاءته مرةً أخرى، أو البحث عن غرفةٍ أخرى للابتعاد عن الضوضاء وقراءةِ كتابٍ بعد عودة أهل المنزل بإزعاجهم وصوتهم العالي الذي لا يُطَاق، ربما وفي قرارة نفسي أجدُ الحنينَ لبعض المشاكل والحيرة والسهر والقلق والضغط العصبي القلبي فأفرحُ بعدَ ذلك بنزعها وحلها من حياتي.

ولكن يبقى السؤال الأعظم:

متى ستختفي المشاكل جميعُها ويعم الهدوء فأكتبُ هذا النثرَ وأنا صادقٌ تماما ومؤمنٌ بكل كلمة أكتبها به.

– بتحب الهدوء؟

– مبحبش المشاكل، الهدوء مطلوبٌ والدوشة أوقات بتبقى حلوة، وكله بيعتمد على المزاج المطلوب وقتها.

هزت رأسها بالإيجاب وكأنها تفهمني وقالت:

– مراحل العلاج الطبيعي بتعتمد على استعدادك يا يس، لازم نفسيتك تبقى كويسة، انسَ حوار السجن وكل الحاجات دي، إنت بتكتب أهوويوسف بيساعدك، صحيح أنا عمري ما سألتك

عليه، إنت عرفته ازاي وازاي صحاب دانتوا عكس بعض أصلا في كل حاجة تقريبا حتى في طريقة اللبس.

ضحكت من تلقائيتها الواضحة كعادتها:

– إنتي عارفة إيه اللي جمع بيني وبين يوسف؟

– إيه!

قالتها بتعجب فقلت لها:

– أحمد فؤاد نجم.

نظرت إليَّ بفتحة فم أبدت أن في تعجب الأنثى بعض ملامح الجمال التي لا تظهر في أي من النساء إلا قليلًا:

– آه والله، أحمد فؤاد نجم، في مرة و أنا صغير كنت قاعد مع أبويا في ندوة شعرية، وكان الندوة دي على شرف أحمد فؤاد نجم، كنت عيل صغير ورايح غصب عني بقا وشفته داخل والناس بتسلم عليه وكمية حب ف عينيها مفهمتش ازاي عمله لحد النهار ده، المهم كان قاعد بيناقش الناس وبيستقبل أسئلتهم وكدة، أنا حسيت فجأة إني بدأت أزهق وأمل من كلام أنا مش فاهمه، رغم إنه الله يرحمه كان كلامه بسيط ويتفهم، بس عيل بقا هعمل إيه، المهم خرجت برا الندوة كده في هدوء من الزهق، وخرجت لقيت يوسف برا و اقف زهقان زيي، وكأني ما صدقت لقيت طفل، قعدت جنبه.

و اتكلمنا عن الزهق وإن أبوه جابه غصب عنه زيي، و اتعرفت عليه وعرفت عنوانه اللي طلع بعدنا بشارعين، و اتعرفنا على بعض لحد قبل ما نمشي كان نجم بيقول قصيدة لسه في دماغي وخيالي لحد النهارده.

ابتسمت ابتسامةَ سعادة بالحكايات، وكأنها عادت طفلةً مرة أخرى تستمع إلى الحكايات دون مللٍ أو كلل فنظرت لها في إعجابٍ شديد وبدأت أنشد ما أحفظه من أبيات الشعر التي أتذكرها عن ظهر قلب:

الشارع نايم تحت جناح الليل همدان

وعيون النور

تعبانه بتنعس ع العمدان

والكون ملفوف

بعباية

نسجها الليل بالخوف

وف بحر الضلمة

رأيت على بعد شبح

حققت بعيني

لقتها يمامة وكاسرة الطوق

كر ابيج الليل

ناقشينها جراح

من تحت لفوق

والأسى ف عينها

مصحي الشكوى تقول حواديت

– عارف؟

قالتها بضحكتها المدنونة وكأنها جذبت انتباهي فنظرت لها وقالت:

– أنا بعشق حكايات مو اقف الشيخ إمام وفؤاد نجم مع بعض، علاقات صداقة وثنائيات وحب بينهم متلاقيهوش في أي حد رغم إنهم كانوا عكس بعض ف كل الصفات إلا الدماغ والأحاسيس كانت بتتلاقى وبتبقى واحدة، تعرف؟ مرة قريت موقف في ثورة 25 يناير لما مبارك اتنحى يومها، وقف أحمد فؤاد نجم في وسط الميدان، ونادى بأعلى صوته على الشيخ إمام «يا إمااام. حد يموت قبل م يشوف يوم زي ده يا غبي. عموما أنا جايلك وهحكيلك كل حاجة»، قد إيه الناس دي بتحب بعض، قد إيه عملوا فن معين متفهموش غير دماغ معينة ومتحبوش غير ناس معينة ورغم كده يعيش وتحس إنه منسوج من الناس وللناس.

ابتسمت لها بعد سماع تلك القصة التي سمعتها منها لأول مرة، اليوم أعلنها رسميًّا، لقد عشقت الحديث معها، عشقتها بأفكارها بروحها

بجمالها القمري كاسمها، بصوتها الذي بدأت اسمعه يدندن أحد أغاني الشيخ أمام بطريقته ونفس اللحن بعد صمت ساد لدقيقتين ذهب كل منا فيها إلى خياله:

«يا حبايبنا فين؟ وحشتونا لسه فاكرينا ولا نسيتونا».

بدأت تدندنها، كان صوتها جميلًا ليس كمغنية، ولكنه بديع في الدندنة، قد يثير أذني بالإعجاب بها أكثرَ وأكثر، ولأنني كنت أعرف تلك الأغنية بدأت أدندنها معها، فابتسمت لي وبدأنا نغني معًا وكأن أصواتنا تغزو عنان السماء بين غيومها وخيالها وجمالها وكأن الموسيقا هي طريق النور الذي جمع أرواحنا معًا دون تشتت أو ابتعاد.

«دا حنا في الغربة م الهوى دبنا، و انتو في الغربة اوعوا تفكروا إننا تبنا مهما فرقونا».

***

الغرفة ليلا

– بالهداوة كده بس، إنت عندك فكرة قصة، يابني إنت من إمتا مسكت قلم أصلا.

كنت أحدث يوسف الذي أتى إليَّ، ويبدو أنه شرب الخمر لأول مرة، أو أنها آثار هلوسة دواء تيفرانيل المضاد للاكتئاب، أو أن المسكنات باتت تؤثر على أعصابه فبات يتخيل أشياء، أو أنه وأخيرا يفكر.

– إيه يابني هو أنا أفكر مش عاجبك مفكرش برضو مش عاجبك.

– مش القصد يابني ولا بتريق عليك، بس كاميرا إيه اللي هكتب عنها.

– أنت مش فاضلك قصة فانتازيا عشان قصة فيلم بتاعت شركة الركيب؟

سألني ففكرت قليلا ورددت:

– المفروض، و أنا عايز أكتب أي حاجة سريعة عشان أخلع منهم بس تكون فكرتها حلوة.

– أهي فكرتها، مالك متضايق ليه؟

– يمكن عشان أول مرة أخدك جد بس، بس لو كده نكتب، ليه لأ.

قصة/ عيار العجوز

(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

«أسطورتها، أنها تتبدل في كل ثانية كالشلال»

–د/ أحمد خالد توفيق–

❁❁❁

اضطررت لارتداء عدساتي اللاصقة بعدما ضعف نظري من العمل كطبيب شرعي، كل شيء بات يحتاج تركيزا، وكل شيءٍ بات يحتاج التدقيقَ في تفاصيله، وكأننا حتى إن ركزنا سنرى الصورة كاملة، ولكن الحقيقة أننا عندما نركز نرى الصورةَ التي تريحنا دوما والتي تناسب أفكارَنا والتي تريح ضمائرَنا، ولكننا لا نرى الحقيقة كاملةً.

يقول روبرت جرين في كتابه (قواعد السطوة)

«إن بداخل كل منا مرآة نرى منها ما نريد أن نراه فينا وحسب من ميزات أو عيوب، ولكن لا توجد مرآة تعطيك الحقيقة كاملة»

مثل الجثث التي لا تفصح عن حقيقتها إلا لمن تشاء وحسب، وهذا ما اكتشفته من طبيعة عملي كطبيب شرعي.

اتجهت نحو ثلاجة الموتى بعدما استلمت ورديتي من زميلي بمعملِ التشريح وأمرت العاملَ بسحب الجثة وأنا في مزاج سيء على غير عادتي، كوابيس النوم تلك التي لا تفارقني، ابنتي الصغيرة التي تُوُفِّيت في صغرها تصرخ وتناديني باسمي وأنا أدفنُها بنفسي، كنت أختنق بشدةٍ أثناء نومي، كيف لا، فأنا أرى نفسي أدفن من أحببتُ بيدي الاثنتين رغم أنني لم أرها منذ زمن حينما أخذتها أمها مني قبلَ أن تختفي.

وقبل أن يصلني خبر حادث أليم أخذها هي وابنتي، لكني أحفظ كل تفاصيلها في رأسي بأناملها وجلدِها الأبيض، وجمالها الصغير الذي يسحر العيون وكأنها سحر الموسيقا لمقطوعة تعزفها وأنت لا تجيد العزفَ رغم أنها تركتني وذهبت لا أنساها.

وضعت الجثة أمامي وبدأت تشريحها بقواعد التشريح العامة بشقٍّ كمثلِ حرف (Y) يبدأ في الجزءين العلويين لكل الكتفين ونزولا ليلتقيا في الجزء الأمامي من الصدرِ، ثم يتابع بعد التقائهما إلى أدنى نقطةٍ من عظمة الصدر وذلك لتعريض أكبرِ مساحة هيكلِ العنق لتفحصٍ بالتفصيل في وقتٍ لاحق، وهذا يساعد بشكلٍ كبير لكشف حالات اختناق المشتَبه بها.

وحرف (T) بين أعلى نقطتين على الكتفين مارًّا في خطٍّ أفقي في جميع أنحاء منطقة عظام الترقوة ثم يجتمع بشق عمودي يلتقي بـ(عظم الصدر) في الوسط، ويُسْتَخدم هذا القطع بالأولية في كثير من الأحيان لإنتاج المزيد من الجمالية بعد الانتهاء من التشريحِ، وعندما يتم إعادةُ تشكيلِها بالخياطة.

وشقٌّ عمودي يبدأ من منتصف الرقبة عند منطقة تفاحة آدم.

بعد أحداث آخرِ جريمة أعتقد من تفاصيلِ تشريح الجثة أنها قُتِلَت بطبنجة حلوان، عيار 9 مم، بطلقتين إحداهُما في قلبها والأخرى في رأسها، وأن الطلقة وُجِّهت إليها مباشرةً مما يدل من زاويةِ الطلقة أنها رأتِ الجاني.

ولكنْ من التحليل العام تبينَ من تحليل البصماتِ فوق الكوب الموجودة بمسرح الجريمة وعلى الباب وبعض الشعر الموجودِ الذي يخص الجثةَ أنها بصمات أنثى، وشعر أنثى غير القتيلة، القاتل أنثى وليس ذكرا، والدليل الآخر المنديلُ الحرير الذي وُجِد في مسرح الجريمة، وُجِد عليه شيء أحمر؛ توقع الضابط المحققُ أنه دمٌ أو بُقَع دم، لكنه كان أحمر شفاه من نوع غالٍ ثابت للبقع، وهو نوع آخر غير الذي تستخدمه القتيلة.

ولكن يبقى السؤال الأغرب:

التحليل العام للجثة أثبتت أن فصيلة دمها هو B موجبة، أما البقع الموجودة في مسرح الجريمة كانت O السالبة، فهل حدث صراع بينها وبين القاتلة؟ ولكن ملامح الجثة لم تنمْ عن وجود أي صراع!

كذلك سن القتيلة، فرغم عدم وجود أوراقٍ شخصية إلا أنني أعطي لها سن الخمسينات أو أواخر الخمسينات، وهذا الجسد الخمسيني لا يقدر على الصراع بسببِ أمراض الظهر والتي أثبتتها التحاليل الموجودة في غرفة المريضة.

ترى ماذا حدث؟

التفتُّ إلى الباب فوجدتُ أحد الحرس يناديني في هدوءٍ شديد كي لا يقطع تركيزي فخرجت له مسرعا.

قال لي أن مفتش المباحث يود مني تقريرًا مفصلا لما رأيته في الجثة ومن توقعاتي، فطلبت منه الجلوسَ في الانتظار لأنني كتبت تفاصيل عدة سأضيف إليها بعضَ الأشياء وأعطيها له، وبالفعل أغلقت البابَ واتجهت نحو الجثة وكأنني اتجهت إلى صدمةِ العمر في حياتي أكثرَ من وفاة ابنتي.

الجثة تبدلت، الجثة الموجودة أمامي جثة فتاة في عمرِ العشرين بكثير إن كانت قد وصلت له، عاريةً يغطيها الغطاء الأبيض وكأنه لم يلمسها مشرط، أو قطعٌ قط.

لم أصدق ما أرى، من تلك الفتاة؟

نظرت حولي أبحث عن جثةِ السيدة العجوز، فلم أفهم أي شيءٍ، اتجهت نحو الثلاجة التي كانت توضع بها الجثة فلم أجدها، فتحت فمي من الرعب وأنا لا أدرك ماذا حدث؟

وفجأةً لم أدرك شيئًا سوى ضربةٍ على رأسي بأداة معدنية قوية، ضربة جعلت الدنيا تلتف بي، لم أرَ شيئًا بعد ذلك سوى ظل فتاةٍ يتحرك قبل أن تنتهي الدنيا بي في ظلام دامس، ظلام لم أشعرْ بعده بأي شيءٍ قط.

***

كل ألفاظ الوداع مُرَّة، والموت مرٌّ، وكل شيءٍ يسرق الإنسان من الإنسان مر، ولكن دوما لا بد أن نمر بالمر لنصل إلى الحلو.

لم أدر ما سببَ كل هذا، وما هي الفلسفة العامة التي تسير بها الحياة، لا أدري ما هو سبب كل ما يحدث، ولا أدرك ماذا حدث عندما وجدت نفسي في تلكَ المشرحة، وذلك الطبيب الأحمق يقطع من أجزائي شيئًا بأدوات التشريح الباردة الحادة وأنا شبه عاريةٍ في غرفة الأموات الباردة تلك.

لم يدرك تلك القدرةَ الخاصة لي على تألم الجروح، ولا على تغيير المظهرِ حسب الحالة المزاجية إلى فتاةٍ صغيرة أو شابة أو عجوز، ولأجل الحق فأنا نفسي لم أدركْها أو أفهمْها حتى الآن فوجدتني أضربُه بمطفأة الحرائق فوق رأسه، وأخذت إحدى ملابس الممرضات وانطلقت هاربةً، شيءٌ غريب وطاقة أغرب، أعتقد أنني لو كنت خارجَ تلك البلاد لأصبحت بطلا خارقا يملك سلسلةَ أفلام ومشاهير وصورًا ونقودًا، وربما بعض المطاعم تحمل اسمي، لكن الآن أنا مجرد هاربة.

هاربة تعلم إلى أين وجهتها.

إلى تلك الساقطة التي لم أرد أي شيءٍ سوى أن أنتهي من حياتها، وهذا لم يحدث.

لم أحكِ لكم حكايتي، قِيل لي أنني وُجِدْت في إحدى القبور ليلا أصرخُ وأبكي دون توقفٍ، أخرجني الحارس وأرسلني إلى إحدى دور الأيتام، لاحظ الجميعُ أنني كلما أبكي يتغيرُ شكلي من عجوزٍ إلى فتاة إلى شابة في نفس الجسد الصغير، يكبر جسدي في سنهِ الطبيعي أما وجهي

ويدي تتغيران، ومع مرور الوقت اكتشفوا أن جروحي تلتأم بسرعةٍ لم يكن أحد يتخيلها.

قِيل أنني جنيةٌ ابنة للشيطان، فأخرجوني من الملجأ، وفي نفس اليوم وجدني رجلٌ عجوز وأنا في عمر الثانية عشرة، قرر تربيتي، ولكن زوجته الملعونة والتي كانت تصغرُه بالكثير من الأعوام لم تكنْ ترضى، فعلت بي كل ما تتخيلونه، حتى وجدت عليها أدلةً تخونه بها، فأرسلتها له، فطلقها.

في ذلك الوقت وقبلَ خروجها من المنزل دخلتْ غرفتي وقيدتني ووضعت بنزينا في غرفتي وبدأت تشعلُ فيها النيران، لكنها لم تكن تعرف قدرتي بعد، تحولت في تلك اللحظة إلى جسد الطفلة الصغيرة وتحررت من القيد، حتى عدت شابةً مرة أخرى وخرجت من الغرفة، كانت قد هربت.

كانت تظنُّ أنني سأتركها.

في ذلك الوقت ارتديت ملابسَها المتبقية، وجعلت جسدي في صورة الشابة وارتديت شعرا مستعارا مثلَها.

ودخلت إلى خزينة المنزل الرئيسية وأنا أعلم أن كاميرات المراقبة تعمل، إلا أنني استطعت أن أخفي وجهي خلفَ الشعر، وفتحت الخزينة وسرقت كل ما فيها وانطلقت هاربةً وأنا أعلم أن الكاميرات تراقبني، وانطلقت إلى موقع سكنها ووضعت بها النقودَ وفررت هاربةً.

كنت في سريري كطفلة في الثانية عشرة أثناء اكتشاف السرقة،

وفي ذلك الحين تم القبض عليها والنقود في منزلها وتم إدراجها بالسجن 10 سنوات، في ذلك الوقت كبرت وأصبحت في عمر 22 عاما، وأصبحت تلك المراهقةَ، أما أبي الذي تولى تربيتي فقد تُوُفِّيَ، وكتب لي في الميراث كل ما يملك لأنه لم يكن ينجب.

كنت أظن أن كلَّ هذا انتهى، ولكن لا تنتهي المشاكل إلا بنهاية الحياة وحسب، ولا سبيل آخر.

عادت تلك الملعونة تطالب بكل شيءٍ، كنت أجلس في منزلي فوجدت من اقتحمته بكل وقاحةٍ هي وعدة رجال، قيدتني، وقد نسيت من أكون، ولكن لأجل الحق حالتي النفسية من البؤس جعلتني في جسدِ السيدة العجوز، فكنت في حالةٍ ضعيفة.

قيدتني ورجالها يمسكون سلاحا في وجهي إما التسليم لكل الأموال وكل شيء أو القتل.

لم أشعرْ بشيء سوى أنني أتحول لشخصية الشابة في أقل من الثانية وانحل من قيدي وألتف بمقعدي وأطيح بأسلحتهم بعيدا، ثم أمسكت إحدى الأكواب من أمامي وقفزت أضربُها به في وجهها وبدأت أخرج قوتي على كل من كان أمامي، حتى شعرت بشيءٍ معدني يدخل جسدي مصحوبًا بصوتٍ مرتفع، عيار ناري أصابني في قلبي، وآخر في رأسي، وهنا انتهى كل شيءٍ، ولم أشعرْ بشيء سوى شيء واحد، أنها لم تكن النهاية بعد.

استيقظت في المشرحة، والباقي تعلمونه، أما هي فسترى مني العذاب الذي لم ولن تراه قط.

ركبت إحدى سيارات الأجرة وأنا في جسم طفلة كي أدعي أنني لا أملك مالا، وصلت إلى منزلها الذي كانت تسكن به كما توقعت، هي غبية وبقيت في نفس المكان، وصلت أمام المنزل وأنا أحمل سكينا سرقته من إحدى المطاعم، واليوم سيكون آخرَ ليلٍ تستيقظ عليه.

***

اليوم أدركت كلَّ شيءٍ، كانت أمامي، أمام عيني، وتركتها تهرب، لا بد أن ألاحقها. إنها هي: ابنتي، علمتها اليوم، أنا من دفنتها بيدي عند موتها، لم أكن أعلم أن حالتَها الغريبة وشكلها العجوز في سنِّ الطفولة سيعطيها فرصةً لتلك القوى الخارقة والتمتع بالحياة مرةً أخرى، أدركت هذا من البصمة الجينية، من فصائل الدم، من قدراتها، من تقرير الشرطة لتفريغ كاميرات المراقبة بالمنزل والتي وضحت الفاعلة، اتجهت مسرعا بسيارتي أحاول الوصول لها قبل أن تصبح قاتلةً وهي أطهر في عيني من ثوب يوسف الذي أعاد بصر أبيه به بإذن الله.

تحركت بسيارتي مسرعا، إنه خطئي، أنا من دفنتها بيديَّ دون التأكد من وفاتها، ولم أزرها يوما، وكأني أخذتها بذنب أمها التي تركتني لتصبحَ زوجةً لرجل غني، ثم سُجِنْتُ عندما حاولت سرقته.

إنها هي تلك التي حاولت قتلها، إنها أمها، إن لم أستطعِ الوصول في الوقت المناسب إلى منزلها فستكون جريمةَ القرن، فتاة تقتل أمها دون علمها.

انطلقت إلى منزل زوجتي القديمة مسرعا، ووقفت بسيارتي أمامه أدعو الله بأن ينتهي كل هذا الكابوس، صعدت داخل العقار، المصعد

معطلٌ، أصررت على الصعود على قدمي وأنا ألتقط أنفاسي بسرعة شديدة، وفجأةً وبدون سابق إنذار انطلق صوت عيار ناري، فتحت عيني على مصراعيها: ترى ماذا حدث؟

صعدت مسرعا أكثر من ذي قبل، اصطدمت بعجوز كانت تنزل على الدرج أثناء صعودي فسقطت على الأرض، فحاولت إيقافها، وجعلتها تستند عليَّ وأنا أعتذر اعتذارات شديدة، ثم انطلقت مسرعا، وصلت للطابق الأخير، كان الباب مفتوحا، اقتربت في الداخل أحاول معرفة ما حدث.

ووجدتها في غرفتها مقيدةً على كرسيها، والدم يغمر جسدها، والعيار الناري أصاب رقبتها فقُتِلَت في وضعٍ صادم، إنها الساقطة التي تركتني، وكأنني لم أحزن عليها مطلَقًا ولم يصب قلبي أي شيءٍ وكأنني اعتدت أن الحزن لا يأتي إلا من ناحية أكثرِ شيءٍ أحببته وحسب ولذلك لم يعدْ يؤثر بي، بل وأنني كنت متوقعًا تلك النهاية. المهم ابنتي التي لم أجد لها أثرًا أين ذهبت؟ ذهبت!

إنها العجوز، العجوز التي اصطدمت بها، كانت هي بلون شعرها، إنها هي، كيف لم أشعرْ بها؟

ترى أين ذهبت؟ وكيف سأجدها؟ ماذا سيكون شعورها عندما تعلم أن تلك الأنثى هي أمها؟ كيف سأصل إليها؟ كيف ستكون حياتها؟ كيف سأثبت أن عيار العجوز الذي أصاب تلك الساقطةَ لم يكن من ابنتي إن حاولت تبرئتها.

ترى ماذا سيحدث؟

الغرفة/ وقت الظهيرة

أين ذهبت يا مخدري؟ لماذا لم تأتِ اليوم؟ علمت أنها في المستشفى، لكنها لم تأت إليَّ بعد، أشعر بدونها بأنني وحيد، لا، بل أسوأ، أشعر أنني غريب، فالأسوأ من الوحدة هو أن تشعر أنك غريب بين كل من تعرفهم.

أو ربما أسوأ، أنا أشعر بالخوف، هل هو من تركها لي كل تلك الساعات، أم أنه من بقائي وحيدا، اليوم علمت لماذا تبدو الوحدة مخيفةً، لأنها تجبرك على معرفة الحقيقة، إنك لا تملك أحدًا في حياتك.

– إيه ياعم مش هنكتب النهارده ولا إيه؟

قالها يوسف الذي كان يجلس في الغرفة أمام سريري ويبدو أنه كان يراقبني في صمتي الدائم.

– مليش نفس يا يوسف.

أردفت في ضيق فنظر لي وقال:

– لا، مدين فوق كده، المهلة فاضل عليها 3 أسابيع، مش هتتحبس عشان 3 أسابيع، إنت محتاج حبة تغيير جو، تعالى أخدك على الكرسي المتحرك دا نتمشي في المستشفى شوية، يالا يا جدع.

نظرت له في ضيق فاتجه نحوي، وقام بحملي ضاحكا قائلا:

– مش لو كنت مزة دلوقتي، كان زماني ببوس مثلا، لكن هبوس ازاي بذقنك المعفنة دي.

لم أستطع إغلاق فمي فابتسمت محاولا كتم الضحكة، فوضعني على الكرسي المتحرك ووضع أعكازي في أحد جيوب الكرسي وبدأنا التحرك ببطء، فتح باب الغرفة وبدأنا نسير في المستشفى قليلا بينما هو يحاولُ إضحاكي ببعض الحكايات والمزاح...

رُبَّ أخ لم تلده أمك!

في كثير من الأحيان كنت أتعجب من قصص خيانة الأصدقاء لبعضهم البعض، لم أكن أصدق تلك القصص، لم أكتبها قط في أي شيءٍ كتبته، وكأنه شيءٌ من القصص المختلَقَة أو الأساطير، أو لأنني لم أمر به...

لم يكن لي أصدقاءُ سواه، كان هو سندي وظهري وكل ما أملك، ورغم أن ظهري كاد يُكسَر إلا أنني لم أشعرْ أنه كسر، كيف يكون ذلك وبجانبي شخص مثل يوسف؟

كنا نسير في إحدى طرقات المستشفى وأمام إحدى الغرف توقفنا حتى قابلناه بشكله المتعَب بعض الشيء، يبدو أنه كان يأخذ إحدى الإبر في وريده، فخرج يمسك ذراعه من الألم لم يكن مبتسمًا حتى رآني فتعمدَ الابتسام في وجهي:

– عال عال، داحنا فكينا ذراعنا اليمين أهو وبقينا فل.

ابتسمت له وقلت:

– والله يا عم محاق كنت اتعودت ع الجبس، بس بدأت فيها أمسك وأرجع أنشن تاني، مانا كنت بلعب رماية.

– أيوه كده عاش الشباب.

وفجأةً قطع حديثنا صراخٌ من إحدى غرف المستشفى على امتداد نفس الطرقة، كان صوتها، كنت أعرفه جيدا.

خرجتْ أمام الغرفة مرعوبةً مرتطمة بالحائط وهي تصرخ، وخرج خلفَها وحش، لا يمكنني تسميته سوى هذا، وحشٌ بجسد مفتول وبشرة سمراء وشارب ويبدو أنه من دفعَها بكل تلك القوة حتى تصطدم تلك الصدمة القوية، خرج وأمسك بشعرها، كانت تصرخُ بشدةٍ وحشد من طاقم المستشفى والمرضى والزائرين يقف ويشاهد ما يحدث ولا أحد منهم يتحرك، أما هو فكان يصرخ في وجهها بصوتٍ غليظ وبشدة كبيرة.

– مش عايزة ترجعيلي يا بنت الكلب، أنا هوريكي، أنا هفرجك.

التفت خلفي وقلت ليوسف سريعا:

– لازم نلحقها.

نظر لي يوسف:

– وإحنا هنعمل إيه مع الحيوان دا؟ إنت مش شايف ذراعه عامل إزاي، أنا بقول إنت مش ناقص تقعد ف المستشفى هنا 6 أو 7 سنين دا لو رسيت على مستشفى بس.

نظرت له نظرة احتقار ثم نظرت حولي أفكر وأقول:

– يوسف، خش الأوضة اللي جنبنا دي، و أنا هجيبه لحد هنا و إنت اخرج فجأةً، و أنا و انت عليه هنجيبه أرض.

– ودا هتجيبه إزاي لحد هنا، يوسف، إنت الحب دا لازمك أوي يعني؟

نظرت له نظرة احتقار أكبر فنظر لي في بؤس وقال:

– منك لله، ابقي سلم الجتة للورثة.

وانطلق يوسف نحو الغرفة التي أشرت له عليها في ممر المستشفى، فأمسكت إحدى عكازي الموجودين بجيب الكرسي واستعدت ذكريات الرماية الجميلة بعد بطولاتٍ عديدة.

وجهته نحو وجهه بالتحديد، ثم عدت بيديَّ إلى الخلف، ورميته رميةً شديدة بكل ما أملك من قوةٍ، كانت موجَّهةً مني بغل ما فعله بقمري وأميرتي، وكانت المفاجأة أنها أصابت أنفه، أصابته لدرجة أن ذلك الجسد الضخم ابتعدَ عنها، وما كان منها هي إلا أن سقطتْ على الأرض من هول صدمتِها، أما هو فكان أنفه ينزف وبدأ بالسباب سبًّا شديدا، ونظر نحو اتجاه الرمية فلم يجد سواي في اتجاهها، فحدقَ في غضب وغلظة شديدة وقال:

– بقا انت يا شوال العظم الوسخ انت، بترمي دي عليا أنا.

فقلت له:

– أيوه أنا، شوال العظم الوسخ بيرميها على شوال اللحم النجس، اللي فاكر نفسه حاجة وهو ولا أي شيء.

– طب وحياة أمك لتكون نهايتك دلوقتي، وعلى إيدي أنا.

قالها بصوت أعلي وأغلظ من كل صوت خرج منه، ارتعبت داخل نفسي، وعندما وجدته يقترب بشكلٍ أسرعَ وشكل مخيف أكثرَ بدأت أرتعب أكثر وأكثر حتى نظرت بجانب عيني فوجدت يوسف في وضعِ استعداد تام.

كان يقترب مني، بسرعة، بقوة، وكنت أنا في وضع استعداد حتى وصل لنقطة الفخ.

هنا انطلق يوسف من موقعه مصطدما في صدره كأفلام مارفل وأجزاء أفلام (Hulk) حتى صدمه بالجدار وبدأ يلكمه لكمات سريعة في وجهه وصدره، في الوقت نفسه أخرجت عكازي الآخر من جيب الكرسي وبدأت أضربه به في تلك المناطق التي قد تنهي مسيرة عائلةٍ بالكامل، ضربات متتالية هناك وفي في صدره وفي قدميه، لم يكن يستطيع المقاومة، كان الموضوع بحاجةٍ إلى بعض الذكاء والحنكة، ذلك الشيء المليء بالعضلات كان جثةً هامدة مغشيًّا عليها بفضل بعد الذكاء وقليل من الشجاعة، وكانت النهاية هي النجاح.

انطلقت بكرسي نحوها لأطمئن عليها، أما يوسف فأمر طاقم المستشفى بحمله معه والذهاب لربطه بأحد أسرة الغرفِ حتى تصل الشرطة.

كنت أقترب منها وفي قلبي شيءٌ من الحزن نحوها، من هذا؟ من ذلك الذي حاول أن يقترب ممن أحبه؟ هل تعرفه جيدا؟ هل اقتربت منه؟ هل قرأته بالشكل الكافي الذي قرأته أنا به؟

هل دفعت ضريبتك نحوه من عشق بات يسير في طريق إليه، وسهر عليه حتى ترتاح عيونه، وكلام عذب وقت الشقاء وكلام مرح في وقت السعادة؟

أنت! كيف تحاول الاقترابَ بتلك السهولة وتظن أنني سأتنازل عنه؟ كيف ظننتَ نفسك أنك فارسٌ يحق له أن يأخذَ من الجياد ما يشاء؛ معتبرا نفسَه صاحب الحق في كلِّ جواد أُعجِبَت به عيناه ما دام سيحتفظ به.

للعلم: زمن الفرسان انتهى، ولم يبقَ لك سوى أن تحدقَ إليه من بعيدٍ لأنني لن أتركه لك.

اقتربت منها العديد من الممرضات، حاولوا حملها لأقرب غرفة، ومنعوا دخول أي رجل للداخل، وكأنني كنت أراقب معالمَ وجهها المرتعبة وهي مغشيٌّ عليها، كانت الممرضة تغلق الباب وكأنني أراقب ما يحدث بتصويرٍ بطيء للغاية حتى أُغلِقَ الباب في وجهي.

اتجهت بعدها إلى الغرفة الموجود بها ذلك الحيوان الثائر، وجدته مكبَّلا مربوطا بحباله في سرير المستشفى وحوله الممرضون ويوسف ومحاق، عليَّ الاعتراف بالشكر والعرفان لجميع من قيدوه لقدرتهم على السيطرة على وحيد القرن هذا، دفعت نفسي بالكرسي حتى وصلت ناحيته وهو يهتز يحاول فكَّ قيوده بعضلاته تلك، يبدو أنه شاب في

أواخر الثلاثينيات، فرق كبيرٌ بينه وبين قمر إن كان أحد أقربائها أو زوجها أو شيئًا آخر.

كان ينظر لي في غضبٍ شديد وكأنه إن فكت قيوده سيقتلني، حاولت التماسك وإظهار أنني صاحب مركز القوة الآن.

– إنت مين؟

قلتها وأنا أنظر بقوة فقال لي:

– و إنت مال أمك، دانا هفشخك بس لو سابوني عليك.

– تؤتؤتؤ، عيب كده، إنت ف مستشفى محترمة، وبعدين لو طقلك عرق هتتمرن ف الجيم ازاي؟

فنظر لي يوسف وقال:

– إنت اللي فرق معاك الجيم، شوف دا لو شرحوله دراعه، هيعمل بركة دم أكبر من مول العرب.

– لا لا يا يوسف إحنا مش هنشرحه، إحنا هنديله حقنة مهدئة، هتريحه خالص.

قلتها مبتسما فأتى محاق بجانبي في هدوء وقال:

– الحقنة أهي، مهدئ ينيم فيل، ومتهيقلي مش هنلاقي فيل أكبر من كده!

نظرت له ولتلك الحقنة بمحلولها الأحمر اللزج قليلا، فبدأ ذلك الضخم يهتز محاولا فك نفسِه ولكنه لم يفلح، اتجهت نحو الوريد في ذراعه ثم غرزت الإبرة في جسده وكأن عينيه أصبحتا جاحظتين من شدة الألم، كان السائل ينزل في جسده ببطءٍ قليلا حتى فرغت الحقنة وهنا سقطَ في سبات عميق، سبات ارتاح بسببه الجميع، ارتاح كل من كان يحضر ذلك الموقف.

***

الغرفة/ بعد منتصف الليل

كنت أجلس في شرفتي بعد رحيل يوسف، لم يكن في رأسي شيءٌ سواها، هل أحببتها فعلا؟ كيف؟ وأنا لم أر منها شيئًا سوا نظراتها، ولم لا؟

وكأنه كان بها شيءٌ يسحب ثقتك لها، يمنعك أن تخرج من بحر عشقت أنت أن تذوب بداخله، القوة التي تزرعها بك وتستمدها منها رغم حاجتها هي لبعض مما تقوم بتوزيعه على البشر، خيالها الواسع المحقق للسهل الممتنع دوما في نظريات أفلاطون، أن تسكن بخيالك ما لم تسكنه في الواقع، بل وأن تجعل من خيالك واقعًا، قليل من يقتحم معها تلك البوابة، تختارهم بعناية، وكأنها جنة لا يمسها عاصٍ أو جاني.

لم أتعجب في شيء سوى ثقتي بها رغم أنني لم أعرفها إلا منذ عدة أشهر، كيف ذلك؟ كنت الشخص الذي لا يثق ولا يأمن إلا في من اقتحم دوائره وسانده، الأغرب أنها لم تقتحم بل إنني من اقحمتها، هل هو رأسها أو عقلها أم أذناها المستمعة ونظراتها الثاقبة وروحها المعبأة بنسيم طفلة ذاقت من الهموم كعجوز عمرها سبعين عاما، ولكنها تظل طفلة، وأظل أنا أثق بها، وكأنني أعطي لها ظهري، وأنحي أول قواعد حياتي بعيدا عني وهي (الثقة هي الفخ).

قطعت شرودي طرقات على باب الغرفة فصحت بصوت عال وأنا أعطي أمرا بالدخول، وهنا بدأت أحدق في من دخل، كانت طرقات حذائها تملأ المكان، كانت هي، بشكلها الجميل، وكأنها لا تسوء رغم

الصدمات، ولا يصيبها قبحٌ مطلقا، ألم أقل لكم أنها جنية، كانت جميلة جدًّا، وكنت أنظر لها نظرات عادل أمام لمي عمر في الحلقة الثالثة من مسلسل (عفاريت عدلي علام)، لقد شككت في وهلة أن موسيقا ذلك المشهد التي صممها العبقري عادل حقي كانت تسير معي وكأنني كنت أسمعها جيدا أثناء دخولها.

كانت مبتسمةً أثناء دخولها، وكنت مبتسما في وجهها لسعادتي حينما رأيتها تسير في صمت وهدوء حتى دخلت الشرفة وجلست على الكرسي الموجود أمامي، وما زالت ابتسامتها على وجهها، ولكني كنت أشعر أنها تخفي شيئًا أكبر خلف تلك الابتسامة، شيئًا لم تظهره أمام أي شخص، نظرت لها وأنا أحدق في ملامحها بدأت تختفي الابتسامة، شعرت أنني أردت الحديث ولكن الكلام توقف داخلي فقلت لها:

– على فكرة، إنتي هنا لوحدك، تقدري تعيطي براحتك.

وهنا نظرت إليَّ وحدقت جيدا في ملامحي حتى تغير كل شيءٍ، نظرت برأسها إلى الأرض وغطت وجهها وبدأت أرى أنفاسها تتنهد من البكاء، كان بكاؤها بدون صوت، بدأت أدفع نفسي بسرعة للاقتراب منها حتى نجحت في هذا بالفعل، وكأنني أحاول أن أخفي تلك الدموع فبدأت محاولا إضحاكها:

– تعرفي يا قمر، أنا طول عمري بكره العياط والنحيب وعشان كده كرهت نص الستات اللي ف بلدنا، تحسي أن سلعوة بتعيط، إنما إنتي كيوت أوي و انتي بتعيطي، (vibration) كده.

وكانت المفاجأة هي ضحكتها وسط دموعها، فبدأت أحاول زيادة جرعة الضحك قليلا:

– عارفة؟ ياسمين أختي لما بتعيط مبتبقاش زيك، دي بتعمل كده (يا ياسيين أنا ظفري اتكسر اعاااااععووو). لوهلة شكيت أن ماما خلفت ديب صغير ف البيت مش أختي.

وهنا رفعت رأسها محاولةً مسح دموعها وهي تضحك فقلت لها بسرعة:

– أيوه كده، تعرفي إن ضحكتك حلوة أوي.

فنظرت لي مبتسمةً وقالت:

– و انت اتعلمت رماية فين بقا؟

كان صوتها يبدو عليه أثار البكاء ولكني فرحت لحديثها وقلت:

– أنا كنت بطل رماية في كلية التربية الرياضية، إنما إنتي عرفتي منين؟

نظرت لي في هدوء وقالت:

– الممرضات حكولي، وحكولي على كل إللي حصل.

قالتها ثم نظرت إلى الأرض وعادت للنظر في عيني مرةً أخرى وكأنها تقرأها، وكأنها علمت من عيني السؤال، فوجدتها ترد وتقول بصوتها:

– كان خطيبي، اسمه محمود، محمود أبو الحمد، وكنا بنحب بعض لحد من سنتين فاتوا، كل الحاجات اتغيرت، كان بيخوني، مع إني عمري ما قصرت ف حاجة، أنا كنت بحبه بجد، بس الظاهر أن الحب سبب عشان كل حاجة حلوة تنتهي وكل الجروح تتفتح تاني، قال إيه بيقول إني بعتله رسالة، أنا أصلا بقيت تعبانة مش عايز أشوفه.

نظرت لها في أسي ولكنني عدلت نظرتي وقلت لها:

– أنا كنت حاسس إني زعلان و إني هبصلك بنظرة بس لقيت إنك متستاهليهاش، إنتي متستاهليش نظرة ضعف، إنتي تعبتي ورميتي بذور وزرعتي، بس مش ذنبك أن الأرض كانت بور، بس كفاية إنك من جوة نفسك تبقي عارفة بذلتي مجهود وعملتي إللي عليكي، ودا أهم من كل حاجة.

وهنا قطع الحديث إحدى الممرضات التي دخلت مهرولة:

– دكتورة قمر، المريضة اللي ف أوضه 307 الجبيرة بتاعتها حصلها شرخ.

– طيب أنا جايه وراكي.

قالتها ثم اندفعت من مكانها مسرعة وهي تقول:

– يس، ألف شكر على اللي حصل، ألف شكر إنك حافظت على حياتي.

قالتها، فنظرت لها ولم أستطع الرد، لم أستطع سوى تعقبها بعيني، تمنيت للحظة أن أذهب إليها وأخطفها في حضني، وأقول لها أنها لا تستحق أي شيءٍ سوى أن تصبح بخير، ألا تختفي تلك الضحكة، لا تستحق تلك الدموع، لا تستحق إلا السعادة والسعادة وحسب.

قبل أن تخرج من غرفتي ناديتها فنظرت لي، فأشرت لها بأن تقترب، وفي هدوءها المعتاد اقتربت مني فأعطيتها ورقةً ما مكتوبة بخط اليد مثل التي أعطيتها لها أول مرة، نظرت لي وأمسكتها لتقرأها، كان مكتوب بها.

(حالتك تلك تذكرني بحالات الأميرات بقصص الأساطير، باكيات جميلات عاقلات رغم الجنون، هل تعلمين أنني لأول مرة أرى من يشبهني في أحزاني وفي بكائي وفي سعادتي، ولكنني لست مثلك في شيءٍ واحد، الخوف، أنا أن عشت خائفا من أن أموت، لا تخافي مطلقا، أنا بجانبك، ولك مني كل الأمان يا عزيزتي).

صُدِمَت من الخطاب، ابتسمت، شعرت بالخجل، واتجهت تخرج من الغرفة مسرعةً لكن مبتسمة، ابتسمت للهفتي لرؤية تلك الابتسامة العزباء من جميلتي، اتجهت إلى حاسوبي، بما أنني نجحت ف الرماية فإنني سأنجح في الكتابة، ليست آخر مرة أكتب، لأن الكتابة لا تعتزل بل تعتزل، وهي لم تعتزلني.

***

قصة/ نقطة ضعف

❁❁❁

(رنا ناصر) و(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

مخلوقين جنس البشر يختلفوا

في الحياة دي مولودين فوق بعض

بس كله أسير لنقطة ضعفه

وكلنا في الضعف نشبه بعض.

أيمن بهجت قمر

جامعة القاهرة

قاعة المحاضرات الكبرى...

أمام باب الدخول...

بعد أذان صلاة العصر بقليل...

كم أصبحت لا أطيق أصوات الضجيج والزحام، كيف لكل هؤلاء القوم أن يقفوا في استقبال تلك الأنثى التي أرى صورها أمام عيني؟ لعن الله الزحام وصديقي الذي أجبرني على المجيء هنا، وكأنني لم أقرأ من الكتب ولم أسمع من المحاضرات ما سمعت، ولكن.

كيف لنفق مظلم أن يضيء مرةً أخرى وكيف تعود بغداد بعلمها بعدما حرق المغولِ مكتباتها، وكيف يعودُ قلبي كما كان بعدما أخذ دروسًا من الدنيا جعلته يفقد نقاءَه، فيصيرَ كتلةً من السواد لا تبغي شيئًا سوى المكوث وحيدا، وحيدا ساكنا لا شيء يهرني ولا شيء يثيرني حتى ذلك الألم الذي اعتدت عليه صار لا يؤلم كما قال أحمد مراد. وجدت أنني حي فقط لأن القدرَ يريدني حيًّا، لا لأي شيءٍ آخر.

أنا ذلك الذي لم ينسَ وصف صديقه العزيز بأنه مُفعَم بالحياة، وكأن له مواسم، يصبح سعيدا، يصبح حزينا، يصبح طيبا كما تطيب الفاكهة في مواسمها، يصبح فأرا يدور في عجلة روليت دوما لا تتوقف، ولا يستطيع أن يوقفها حتى وإن انكسرت عن مركز دورانها، ورغم ذلك لم يلتفت أو ينظر لنفسه بعين شيء غير السخرية...

لم يحب عيون الحسرة في من حوله أو حتى في عين نفسه، وكأنه كان قويًّا حمولا مع كل شيء إلا أبسط شيء: الابتسامة، تلك البسيطة التي تأتي بسيطة وإن ذهبت تذهب ولكن ليس بلا رجعة، وكأنه يعلم أنه وفي أفضل مواسم اكتئابه يرسم البسمةَ على وجهه ووجه من يحب، يتجه لهم، يضحكهم، يسمع مشاكلهم وكأنه ينسج منها بيتا كالعنكبوت، بيتا يختبئ فيه عن أي شيءٍ يعيده لذلك الاكتئاب الشنيع الذي يكرهه، وما إن ينتهي شغفُه حتى يجدَ الاكتئاب أصبح أخطبوطا يشده بأذرعه الثمانية فينجرف مرتطما بصخور عدة، قد يجد يدًا أو اثنتين تحاول شده حتى لا يغرق...

ولكن كيف لتلك اليد أن تصمد أمام أخطبوط؟ لو كنت جاك سبارو بما يكفي لقطع أذرعه بسيفه، أو ربما انهال يمزح ويضحك حتى وإن كان يغرق، وعندها لم أكن لأسمح لنفسي بأن أكتب عن جاك سبارو وحدها، ولكن سأكتبها كابتن جاك سبارو.

لو كنت الجوكر لاستمررت أضحك وأنا أسقط من الدور المئة في مبنى مرعب، أو قد أستمر بالضحك حتى وإن كانت المستشفى تحترق من خلفي مرتديا ملابس تلك الممرضةِ السمينة التي لا يمكن أن تكون في مقاسي، ولكنني لست هذا ولا ذاك ولكنني أوشكت أن أصل لذلك الثبات الانفعالي الذي أتمناه، أحتاج إلى أرواح عدة تسكن بداخلي أكثر من الأرواح الأخرى التي واجهت معي كل شيءٍ.

التفتُّ إلى صديقي الذي نظر إلى اللافتة الموجودةِ بجانبنا، كانت تحمل صورةً لتلك التي ستلقي المحاضرة واسمها (أمنية الجلالي) بشعرها بني اللون وعينيها العسلتين ولونها الأبيض المضاف إليه بعض

النمش في وجنتها وابتسامة ربما جعلتها جميلةً في الصورة قليلا، ولكنها لم تلفتني، وقال:

– يوسف. أنا عارف إنك جاي غصب عنك، بس اضحك حتى يا أخي شوية، عارف أن الموضوع صعب بس إنت تقدر.

التفت إليه دون أي تعابير على وجهي، ثم عدت أنظر للصورة مرةً أخرى، عليَّ الاعتراف أنني لم أكف عن النظر إلى النساء رغم كل ما حدث، وخصوصا ذوات النمش والشعر البني.

نظر إليَّ شزرًا وكأن عيونه تخرج شرارا أخاف لمسه فيحرقني كليًّا، ثم أردف:

– يا رب بس المحاضرة دي تفيدك، وأنا حاسس بدا، ع الأقل تشغل تفكيرك عن بنت الـ...

– يااااسر! خف نفسك واهدى!

قلتها وفي عيني نيازك كادت تخرج فتذيبه في مكانه حتى قطع حديثنا خروج أحد العمال وهو يعلن عن السماح بالدخول لنا لأن المحاضرة ستبدأ بعد 10 دقائق.

***

داخل القاعة

اتجهت إلى إحدى الكراسي القريبة بالمسرح، لم يكن الحضور كثيرا وقلتها لياسر، يبدو أن الجميع أحسوا بالشبع من الكلامِ عن الأمل وعن الحياة وعن الجمال لأنه أصبحَ حديثًا وكلامًا في كتب إبراهيم الفقي ومن يشبهوه وحسب.

كراسي جامعة القاهرة الحمراء المحشوة بالإسفنج المريح، ووجود برودة التكييف التي تبعث النعاسَ بعض الشيء، هدوءٌ تام، ربما إن استمررت بالحضور سيكون هذا أحدَ أهم الأسباب.

أصوات حديث الجميع عن المحاضرة، ومن يحمل تسجيلا ليسجِّلَ، ومن يحمل شيئا ليدوِّن، ومن دخل إلى هنا لأجل قوام الدكتورة الممشوق الذي لن يجده في الحدائق العامة أو الشوارع، والتي لم تهدأ إلا عندما سمعوا أحد أصوات الميكروفون وهو يصفر بصوتٍ مزعج لم يهدأ إلا عندما اتضح صوتٌ هادئٌ قليلا لم يصعد على المسرح بعد وهو يقول:

– مساء الخير، أنا دكتورة أمنية، دقيقة بالظبط وهنبدأ المحاضرة بتاعتنا، بعد إذنكم نقفل التليفونات بس عشان مفيش حاجة تزعجنا، وفتح باب الأسئلة هيكون في آخر المحاضرة للي عنده أي سؤال، وشكرا.

في هدوءٍ تام أصاب القاعة، بدأت طرقات كعب نسائي داخل من الكالوس إلى المسرح، خطواتٌ هادئة بسيطة من أقدام جميلة اقتحمت المسرحَ بفستان أبيضَ مليء بورود حمراءَ بسيطة اللون وجميلة في أنثى كانت أجملَ من الصور، بنفس الصفات التي ذكرتها ولكن أجمل، لفتت نظري لأجل الحق لمقوماتها، دخلت مبتسمةً بعدما أُظْلِم المسرح، ووجه أحدُ عمال المسرح من الخلفِ الضوء ناحيتها، كانت مبتسمةً هادئة ولكن شعرها كان أقصر قليلا من الصورة، وربما هذا ما جعلها أجمل.

حملت الميكروفون واتجهت تنظر إلى الحضور، ومن هنا أعتقد أن المحاضرة قد بدأت.

– مساء الخير، أولا أنا بشكركم على حضوركم المحاضرة أو الكورس، بصراحة عدد الحضور كان أكبر من خيالي بشوية وعلشان كده لازم أشكركم.

قالتها وهي تبتسم، وهنا تأكدت أن جمال الأنثى في ابتسامتها رغم كل المقومات.

– الكورس هنا 7 محاضرات، في محاولة منا بشوية تركيزونظريات يبقى عندنا حبة أمل نشوف بيه الحياة أجمل... الكورس أنا سميته (شد)، وشد هو اسم أحد الآلهة عند القدماء المصريين واللي كان بيساعد المصريين عند الشدائد، ويخليهم يبصوا للحياة بشكل أحلى وأجمل يحلوا بيه مشاكلهم، ومنعا لأي لبس أنا أمنية محمد الجلالي ومسلمة وموحدة بالله كمان.

أعتقد أنها لم تكن مزحةً خفيفة الظل إلا إنها تحاول أن تخرج الجميع من جو المحاضرة والأسلوب الجاد، ولكنها فشلت رغم أن هناك بعضًا من الأشخاص قد ابتسموا.

– وبكدة ممكن نبدأ أول محاضرة في الكورس، الأمل، هنتكلم النهارده عن الأمل. بصيتوا لبعض، وشايفة ناس خرجت منها ابتسامات سخرية.

كان ذلك أنا بالمناسبة.

– طبعا أنا أول ما قولت الأمل الكتير منكوا شافوا إنها محاضرة شوية كلام زي أي كلام ممكن بنقوله نواسي بيه بعض بس ملوش وجود. بس أنا حبيتها تكون مختلفة وهسعى لدا، حبيت أتكلم عن أن حكمة ربنا ف اللي بيحصلنا هي أساس الأمل ف حياتنا.

كام مرة ضاعت مننا حاجات وناس وحسينا إنها آخر الدنيا ومع ذلك مكملين ويمكن أحسن من الأول؟ مين فينا هنا متمناش يكمل مع حد حبه لآخر العمر، و انتهت العلاقة ورغم كده كمل وعدى ويمكن لقى الأحسن كمان؟ مين فينا مجالوش مرض حس منه إنه خلاص الحياة انتهت وإن كل شيء راح، وأول مافاق رجع بنظرة تانية واستغل الأوقات وعمل الأحسن والأحسن؟ مين فينا مكنش ليه صحاب وكل الذكريات بينهم و اتمنوا يبقوا سوا وميتفرقوش، و اتفرقوا بالظروف أو لصفاتهم الوحشة ورغم كده ربنا عوضك بناس تانية؟

حكمة مبتبانش غير لما تبعد لما تبطل تحط كل يأسك وضعفك ع الزمن والحظ وكل الشماعات دي، حكمة إلهية ممكن مبتبانش قدام عينك طول، حكمة ربنا بتبان لما بنشوف اللي ورا الكواليس.

إيه رأيكم لو ننفذها بأسلوب جديد شوية، أنا مش هتكلم كتير أنا بس حابة اللي يفتكر موقف ولو بسيط شاف فيه حكمة ربنا وستره يكتبه ف ورقة و أنا هعرضه ع الجميع واللي مش حابب يكتب اسمه مفيش مشكله.

وبعد مرور حوالي 10 دقائق

– واضح أن محدش كتب اسمه، السرية التامة واضحة بس ممكن نبدأ نقرا.

الورقة الأولى: شوفت حكمة ربنا لما بعدت عن شخص كان أغلى حاجة ف حياتى ولما بعدنا حسيت أني ممكن أكون ظلمته وفضلت شايل الذنب دا لغاية ما ف يوم اكتشفت إنه هو اللي كان حابب يبعد وعمل كل حاجة تخليني أبعد عنه علشان يلاقي البديل وساعتها حسيت إن بعدي دا كان فرصة جديدة لحياة أحسن.

الورقة الثانية: مجموعي ف الثانوية! كنت متأثر أوي لأنه مكنش زي ما متوقع، شوفت حكمة ربنا لما تفوقت ف كليتي دي، و اتعرفت ع ناس من أحسن الناس اللي عرفتهم.

الورقة التالتة: ف موقف عمري ما هنساه طول عمري ف نتيجة مدرسة عادي كنت بصلي وأدعي كل يوم إني أجيب مجموع معين وبدعي نفس الدعوة بنفس المجموع حكمة ربنا إن النتيجة لما ظهرت جبت المجموع بالظبط و أنا الوحيد اللي كنت جايب المجموع دا.

هو دا إللي كنت بتكلم فيه، حكمة ربنا مش هتبان غير لما تتحول من الظلمة للنور، لكن ساعتها بتضيع أوقات من الحزن والهم

والغم والتعب، لو بنشوفها بدري شوية هنكسب وقت عظيم أوي مش متخيلينه، وقت ممكن نبني نفسنا فيه من تاني واحنا مستنيين الحكمة تبان.

هنكمل بقية الورق...

الورقة الرابعة: حكمة ربنا إني، احمم احمم، فاضية، ورقة فاضية.

أعتقد كده ممكن نكون خلصنا ومعادنا بكرة ف نفس الوقت. شكرًا جدا لحضوركم أوي.

***

يبدو أنني أصبحت أملك قدرة الإحساس بالمستقبل، من قبل دخولي قاعة المحاضرات، من قبل مجيئي للجامعة، من قبل تحضيري للمحاضرة أشعر بشيءٍ غريب قد يحدث، وكأنها حاسةٌ سادسة أو سابعة، ولكني لا أدعي شيئًا ليس فيَّ، بل إنني أكره من يدعي شيئًا أمامي فأتخذ أمامه فلسفة الوداع للقوم الكاذبين المدعين، لا تصطنعوا اهتمامكم كلكم مكشوفين.

كثير منا قد تُتَاح لهم فرصة معرفة العلامات، ولكنني أستغل إحساسي في استغلالها فشعرت بشيءٍ قد يحدث.

مذ دخلت تلك القاعة، وأنا أتابع نظرات الجميع قبل أن ألقي المحاضرة وأقرأ أفكارهم جميعها، من دخل للاستماع، من سيقتنع، من سيسخر كما فعل هو، رأيت ابتسامته الساخرة عندما تحدثت عن

موضوع المحاضرة، وكأنه فاقدٌ للأمل في أي شيءٍ، وفي كل شيء، نظرته لي وأنا أفتح الورقة بعد تركيزه الجيد الذي لم أتوقعه في المحاضرة، (شفت حكمة ربنا إني جيت هنا وشفتك، الظاهر إني هكرر الزيارة).

علمت أنه هو من نظراته، مراقبته للورق بذلك الشكل الملفت للنظر، أو من ابتسامته عندما فتحتها؟ أم أنني أرضي غروري وحسب.

في بعض الأحيان يحتاج كل منا إلى أن يرضيَ غروره فيسبب الوهم لنفسه بأنه يعلم كل شيءٍ أو يتوقع كل شيءٍ أو يقرأ الجميع، وفي الحقيقة هو لا يملك سوى إحساسٍ ينبض بصوتٍ قلق، وعقل يدق وكأنه أجراس كنيسة تدعو للصلاة وقت العيد.

كل ما أعلمه الآن، هو أنني رغم تعجبي كنت سعيدةً بما حدث، وهذا أمر مقلقٌ، فلا تغرقُ السفن إلا عندما تفرد أشرعتها فتقطعها العواصف ولا أنا أفرح وأسعد يوما إلا وأنا أعلم بأن هدوءَ ما قبل العاصفة، وصهيل خيول إعلان الحروب، ولكن لا يبقى لي شيءٌ سوى الانتظار، الانتظار وحسب.

***

في أحد الأيام/ جامعة القاهرة: قاعة المحاضرات

المحاضرة الخامسة...

لم أكد أنهي قهوتي حتى أتى لي أحد عمالِ القاعة يعلن عن دخول جميع الطلاب إلى القاعة، وضعتُ فنجاني على المكتب، ثم أمسكت بأوراقي وبدأت الاستعداداتِ، ولكني كنت أشعر بوجوده كما شعرت به في المحاضرات الأخرى، شيءٌ ما هيأ لي نفسيًّا أنه موجود، في نفس مكانه وعلى نفس الكرسي، ينظر إليَّ بنفس الهدوء وربما بنفس الابتسامة أيضا، قد ألغي فكرةَ الأوراق اليوم كما فعلت في المحاضرات السابقة، وقد أنتظر منه ردَّ فعلٍ آخرَ ملفت للنظر كما فعل.

دخلت القاعة وسط تصفيق الجميع، وكما توقعت وكأنني رأيت القاعة من خلف الستار، يجلس في هدوئه الثابت كعادته يصفق بتأنٍّ ليس بحرارة كباقي الحاضرين.

أشرت بيدي وأمسكت المايك وبدأت الحديث محاولةً عدم لفت انتباه نظري له.

– النهارده هنتكلم عن تاني حاجة بتكون أساس في تكوين شخصياتنا، المبادئ، النهارده هنتكلم عن المبادئ ومش هقول إنها انعدمت وإنها كانت أيام زمان وبس والكلام دا، أنا هتكلم عن فكرة المبادئ ف حياتنا، كل واحد مكون المبادئ الخاصة به

وبيتعامل ع أساسها بتساهم في تكوين كل شبر ف شخصيته، ومن هنا بيجي الاختلاف من شخص للتاني، بتختلف حسب التفكير والعلم والتربية بس بيفضل في الأول وفي الآخر اختلاف.

مش معنى إن إنت شايف إن مبادئك دي صح يبقى هي صح، لا عادي ممكن تكون غلط بس الفكرة هنا هل إحنا ناس قابلة للتغير؟ هل لازم التغير دا نعتبره عار وتخلي عن مبادئنا؟ هيجرى إيه لو اكتشفنا بعد وقت طويل إننا عشنا بمبادئ غلط اتبنت على شوية عقد، هل يا ترى هنكمل فيها ونعند ولا هنعيد حساباتنا؟

الحقيقة إننا بقينا بنعيد حسابتنا، أو بقا أغلبنا.

كل الحاجات اللي كنا بندافع عنها بقينا بنمارس عكسها في الوقت اللي هتمس فيه مصلحتنا.

(رأيته في تركيز شديد وكأنه يعلم كل كلمة أقولها من مواقف مر بها).

المبادئ بتيجي من عادات وتقاليد، لكن لما تبقى العادات دي مشوهة، كل اللي بتعمله إنها بتشوه إللي جواك وبتعمل منك شخص إنت مش عايزه كده بقا اسمها عاهات مش عادات، كده بقت باطلة، وما بُني على باطل فهو باطل، ومحدش يقولي الناس هتلاحظ تغييري، الناس مبتلاحظش تغيير بعض غير للأسوأ عشان تخلي منها لبانة ف بوقهم يتكلموا عليها وقت التسالي وقعدات الرغي اللي مبتخلصش.

إنت إللي ف إيدك زمام كل الأمور، إنحت نفسك وشكلها بالشكل إللي عايزه وصدقني ساعتها هتكسب إنتصارك لنفسك، انتصار جواك حققته بعينيك الاثنين.

وجدت تصفيقًا حاد من القاعة فور انتهاء كلامي، كان تصفيقه هادئا ولكن عينيه تبرز مدى الإعجاب بحديثي، نظرت له سريعا لأتابعه، ثم نظرت لباقي الحضور وخرجت من القاعة متجهةً إلى سيارتي في الجراج.

***

ممنوع الاقتراب...

خطر، خطر...

كأنها لافتات رأيتها عندما كنت أجري خلفها في الجراج، أشياء كثيرة تجذبني لها لأتكلم، وأشياء أكثر تجذبني عنها لكي أتحرك، نسيت معها كل ما مررتُ به، نسيت معها أسوأَ الظروف بحديثها ومتابعتي لها.

عليَّ أن أشكرَ الوقت والصدفة وروحَها لأنها جعلتني أعشقها.

اتجهت خلفها وأنا أنادي:

– دكتورة أمنية، دكتورة أمنية.

نظرت لي سريعًا دون أن تطيل التعجب وقالت:

– نعم اتفضل.

– حضرتك طبعا متعرفينيش، ممكن أكتفي إني اقولك إن اسمي يوسف و إني بقالي فترة بحضرلك المحاضرات ومتابع الكورس كله.

– دي حاجة تفرحني وتبسطني طبعا، عندك أي استفسار أو تعديل.

– الصراحة إن من طبعي مبقتنعش بكل الكلام دا وصاحبي جابني غصب عني الحقيقة.

– احم احممم.

شعرت بأنني بدأت أقول كل الكلام الغير مناسب فبدأت تعديله:

– لا، متفهمينيش غلط أنا آسف طبعا، لو كنت وصلتلك كلامي غلط، بس أحب أعترفلك إني لأول مرة حد كلامه يعدل بعض أفكاري.

– طب دي حاجة حلوة جدا، بس الفكرة إني مبقولش شوية كلام وخلاص، لا، كل الحاجات دي و اقع والأمل موجود ف حياتنا كلنا.

– يمكن لو حد تاني كان قالي الكلمتين دول كنت ضحكت ضحكة صفرا ومشيت وسيبته.

– ياه للدرجادي؟ طب أتمنى إني أشوف حضرتك تاني و أتمنى أن يكون ليا أثر حلو عليك.

– الحقيقة أه، تسمحيلي أقدملك الهدية دي.

فنظرت إليَّ متعجبة من حديثي فأخرجت من حقيبتي كتابا، وقلت لها:

– دي كل المحاضرات بتاعتك، والمحاضرات الناقصة جبتها من الكورس اللي فات على اليوتيوب اللي كان نازل، وجمعتها ف الكتاب دا بتمنى تعجبك.

نظرت إلى الهدية وهي تفتح عينيها على مصراعيها من المفاجأة، فبدأت تحاول كتم ضحكتها وسعادتها، ولكنها لم تفلح فقالت:

– أنا مش عارفة أقولك إيه يا أستاذ يوسف، إنت مش متخيل أنا سعيدة أد إيه؟

– هو دا كان كل همي، سعادتك، أمنية أنا لأول مرة حسيت إني بحبك، ومقدرتش أخبي، خفت أخبي تقومي ضايعة مني زي ما كل حاجة بنستناها بتضيع، ولكني قررت متضيعيش ودورت وسألت، وعرفت إن مفيش حد ف حياتك، أمنية أنا فعلا بحبك.

أستأذنت هي سريعا وركبت سيارتها، فنظرت لها مبتسما ووجدتها تسترق النظر إليَّ، فقلت بصوت عالٍ وهي تتحرك:

– هستني ردك، وتليفوني موجود جوا الكتاب.

***

لم أكن أتوقع منه هذا، رغم أنني كنت أشعر به، هل هو يحبني؟ أشعر بالإعجاب نحوه، لا أخفي، فلقد بحثت خلفه أيضًا وعرفت معلومات كثيرة عنه، ولكن لا، ليس أنا، لا أخفي سعادتي ولكن لا، هذه ليست أنا، أنا أفكر من ذلك اليوم، مرت حوالي 10 أيام، تقابلنا عدة مرات، في كل مرة أعرفه أكثر ويعرفني، في كل مرة أرى منه الذي يعجبني ويثيرني، ولكني أشعر بقربٍ خطر، أشعر أنني أخاف الاقتراب، آتي إلى المحاضرة ولكني أتعمد الهروب منه، أنا لا أعتقد، أنا أشعر أنه عليَّ... لا، لا، لا يمكن، لقد أرسل لي رسالةً أنه سيقابلني غدا، ولا يمكن حدوث هذا أبدا.

***

ذهبت له في إحدى الحدائق العامة، كان يجلس في هدوءٍ يحمل بعض باقات الورد بلونها الأحمر الزاهي، لا أعلم لماذا أتيت ولكن يبدو أنه عليَّ أن أنهي تلك المسألة اليوم.

اتجهت نحوه فابتسم ابتسامة هادئةً وأشار لي بالجلوس، ثم أعطاني باقة الزهور بجانبي، كانت جميلةً حقا كجمال الروح قبل أن تمسها الجروح والندوب فقلت له:

– دي بمناسبة إيه؟ وبعدين إحنا هنا ليه؟

– يعني، حسيت إنه عدى وقت كتيرو أنا مستني ردك.

صمتٌ تام لم أستطع أن أرد بأي شيء.

– إيه؟ للدرجادى إنتى مش حاسة بأي حاجة ناحيتي؟

–...

– واضح إن أنا كنت موهوم إنك ممكن تكوني بتحبيني.

– أحب؟! إنت إزاي بتحبني؟ إيه اللي مخليك متأكد من دا؟

– إيه يا أمنية اللي بتقوليه دا؟ إيه اللي مغيرك كدا؟

وجدت في عينيه الكثير من الأسئلة:

– إيه؟ سؤال غريب؟ إنت بتعرف تحب طب ازاي؟ أنا المفروض أحب، طب ليه؟ عايزني أضعف؟ عايز تستمتع بضعفي وتحس بقوتك لما أحبك؟ مش هيحصل؟ عمري ما هضعف علشان أي حد؟

– مين قال إنك هتضعفي، أنا حبيت فيكي مبادئك وقوتك؟

كان في صدمة تامة.

– هههه ضحكتني! مبادئي، وقوتي حبيتهم؟ بتضحك ع مين إنت زيك زي أي راجل بتستكترع الست إنها تكون قوية، بتستكترفكرة إنها ممكن تكون أقوى منك، أذكى منك، وليها مبادئ لوحدها بتفكيرها وطريقتها، بتحط العصفورف إيدك على إنك بتحميه من اللي حواليه لحد ما تخنقه، فتقرب منها باسم الحب علشان تضعف وتكون عملت اللي يرضي غرورك ورجولتك وتحس إنها من غيرك ولا حاجة، بس أنا خدت عهد ع نفسي إني عمري ما هضعف، ولو قلبي مال ليك أدوس عليه بكل قوتي ولو فيها موته.

– إنتي مين؟ إيه اللي بتقوليه دا؟ أنا مصدوم! فين أمنية اللي كل كلامها عن المبادئ والأمل وإن بكرا أحسن؟ فين أمنية المشرقة؟

– كل حاجة بتروح جاي ع دول ومش عايزهم يروحوا، كان نفسي أعلم الناس القوة علشان الضعف بيموت، و أنا مش هموت من الضعف، مش هسمح لأي حد يضعفني ولا حتى قلبي.

رأيته يطفئ سيجارته في المقعد الخشبي، وهو ينظر لي قائلا:

– لو فاكرة إني كنت جاي أعمل كل اللي قلتيه و إني بكدب عليكي، فانتي اللي كنت خايفة منه عملتيه، وعملتيه زيادة أوي بماسك غبي لبستيه وقع منك مع أول زنقة، إنتي زيك زيهم، كلكم واحد.

وغادر دون أي تعليق، ما باله؟ كان عليه أن يفهم أنني لن أعود لخداع أي شخصٍ، لن أعود لأرتدي قناعَ الغباء والضعف، لن أعود للوقوع في الفخ مرةً أخرى، لن أموت ضعيفةً مثل الجميع، مثل أمي، مثل أختي، لن أسمح لنفسي بأن أضعني في قفصٍ أموت فيه بحسرتي وقلة حيلتي كما حدث لأمي بعد استغلال أبي لضعفها فكسرها بغلظته وهددها بالابتعاد رغم أخطائه، استغل حبها له في تعذيبها، وقبلت فقط لقب الأم المثالية ووسام الحفاظ على أولادها بقبول التعذيب من شخص جعل منها أمةً تحمل كل الظلم فوق رأسها حتى أصابها المرض، وماتت، لا، لم تمت بل قُتِلَت، قُتِلَت بسببه، المرض الذي أصابها كان بسببه، هو من قتلها.

وفي النهاية يعود علم الجينات للعب ألاعيبه، فترث أختي نفس الضعف منها، تعلقت فأحبت ففارقت فجفت فتحسرت فقُتِلَت، كانت تفعل كلَّ ما تشاء ليصبحَ حبُّها مبنيًّا على أساسٍ لا تهزه تسونامي ولا تدمره العواصف، فما كان المقابلُ منه إلا الجفاءَ والضجر حتى تركها، فانتحرت.

وما كان القاتل إلا ضعفها.

وفي النهاية يظن يوسف أنني مثلهم، سأسلم بتلك الطريقة الساذجة باسم الحب، يقول أنني مدعية للمبادئ، الادعاء هو وجود صفةٍ لا تملكها، ولكني كنت أمتلك الكثير منها، كنت أعطي في محاضراتي من النبذات ما يجعلهم يرون الأمل ولو كان في غرفةٍ مظلمة، يصبح به قويا فلا تتكرر أمي وأختي في البشر جميعهم.

وفي النهاية عليَّ الاعتراف بأن الحب سببٌ كافٍ لينهار كل شيء.

***

– ودي كل الحكاية يا دكتور.

قالتها أمنية وهي مستلقية على ظهرها على أحد أسرة عيادات أحد الأطباء النفسيين الذي كان ينظر لها وهو يشرب سيجارته بهدوءٍ شديد، يستمع ويدقق ويلاحظ ويدون كل تفصيلةٍ تلقيها على مسامعه قد تفيده وتهمه.

نظر لها في تمعنٍ شديد وقال:

– هستأذنك، يالا بينا، هندخل الأوضة اللي جنب الأوضة دي سوا.

فنظرت له أمنية في تعجب، ولكنها كانت تشعر بالارتياح لابتسامته فوافقت دون مجادلة.

فتحركت إلى باب الغرفة التي فتحها، ودخل فدخلت خلفه، وفتحت عينيها على مصراعيها عندما رأته، كذلك هو الذي كانت علامات الانبهار أمامه منها هل هي فعلا؟ هل هي حقيقةً أمام عينيه؟ تراجعت هي في خطواتها وهي تنظر إلى الطبيب الذي ابتسم لها وأشار لها بالدخول، في نفس الوقت الذي أخرج يوسف علبة سجائره من توتره ونظر إلى الطبيب الذي ابتسم له أيضًا.

جلست أمنية في الكرسي الموجودِ أمام يوسف، وبدأ كل منهما يملأ عينيه من دون استيعاب لما حدث حتى قطع الطبيب بحديثه تحديقهما لبعضهما البعض.

– طبعًا أنا بعتذر إني جمعتكم منغير ما أقولكم، بس الطبيعي إنكوا كنتوا هترفضوا ومكنش ينفع أقول الكلام دا لكل واحد لوحده لأن دا إفشاء لسر المريض التاني، لكن مفيش مانع من إني أقوله مدام كل واحد فيكم هو مشكلة التاني وكل واحد فيكم كان بيتعالج عندي لوحده.

نظر الاثنان لبعضهما في تعجبٍ من تلك الصدفة التي رتبتها الأقدار لتكون بدايةً جديدةً، أو ربما نهايةً محتومة ،فقطع الطبيب ذلك التعجب بحديثه مرةً أخرى.

– اللي عايز أقوله إن مفيش خلاف ع إن كل البشر بلا استثناء مليانين تعب وعقد، والحياة مسابتش حد سليم نفسيًا...

بس نقطتكوا إنتوا اللي توقفت عندها وركزت فيها أوي، أمنية شافت إنه من الضعف إنها تحب بناءً ع تجارب الآخرين، وشافت إن الحب هو اللي بيخلق الضعف، مشافتش الحقيقة فإن الضعف هو اللي بيموت الحب...

الضعف بيحول علاقة الحب والمودة والتفاهم لعلاقة خضوع طرف للآخر، وهنا مبيبقاش حب والضعفا بس هما اللي بيستسلموا للأمر دا، لأن الحب متخلقش إلا للشجعان وبس.

أمنية ف البداية كانت قوية واستجابت لقلبها لما مال ليوسف وفعلا حست إنها حبته، بس فنقطة فاصلة قررت إنها تتوقف عند الماضي، وعند كل المفاهيم اللي كونتها ف عقلها عن الحب وقررت تبقى قوية، ومتستسلمش للحب دا...

وهنا أمنية ضعفت، قوتها كانت ف استمرارها وإنها تقدر ترمي الماضي ورا ضهرها، وضعفها ف إنها مقدرتش تستمر، ودا خلق حالة من عدم الاتزان خلتها تختار المشي جنب الحيط، البعد عن كل القصص اللي عاشتها وشافتها ف أمها وف أختها...

ممكن لما تبص دا تلاقي إنها بتغلط ف حق نفسها، بس برضوا لازم تقدر، اللي جوا الموقف غير اللي برا، واللي عايش ف الحرب غير اللي بيتفرج عليها من التلفزيون.

فنظر يوسف إلى أمنية جيدا ثم أعاد النظر إلى الطبيب.

– على العكس هنا يوسف ضعفه ف البداية كان إنه استسلم لسواد الدنيا والأمور، وقرر يتعامل مع كل اللي حواليه باستهتار وميآمنش بحقايق كتير إن الدنيا لسة كويسة، حس بالخيانة والدنيا السودا دي بعد وعود كتير حبيبته وعدتهاله، كان شاب زي أي حد وحبيبته وعدته إنهم دايما سوا وكعادة نهايات كتير، بمجرد ما تقدم أعز أصدقائه لها واللي كان مرتاح ماديًّا جدا، ويوسف ف الفترة دي كان ف الجيش، و انتهى إنه خسر كل حاجة، ودا كان عامل من العوامل اللي خلته يدخل قاعة المحاضرات ويسمع باستهتار وكأنه بيسمع كلام فارغ ملوش أساس من الصحة، بس فنقطة فاصلة حبه لأمنية ولد جواه القوة تاني وقرر يستمر ويشوف الجزء المضيء ف الدنيا.

الحكاية كلها إن كل واحد منكم كانت قوته ف التاني، بس شاف ضعفه ف التاني، وبكدة ممكن يكون العلاج هو الارتباط أو الفراق، أنا هسيبكم سوا، شوفوا وبصوا و اتناقشوا، شوفوا نفسكم، وقيموا الموضوع وحددوا العلاج اللي تحبوه.

نظرا كلاهما إلى الآخر، تتحدث أعينهما نيابة عنهما خائفين من أي قرار يريدان اتخاذه، خائفان أن يخذلهما الزمن كما يفعل دائما،

يعلمان أن الظروف والماضي قد بنى بينهما جدارًا صلبًا صعبٌ اختراقه، وأي محاولة لا تجدى نفعا، ربما استسلموا لعقدهما، بداخلهما صراع بين الحاضر والماضي، في عقلهما حيرة؛ هل يلومان الزمن أو يلومان ضعف نفسيهما؟

غادرا عيادة الطبيب، كل منهما سالكا طريقا مختلفا بداخلهما صراع نفسي، هل يمكنهم الاستمرار سويا وتحدي كل ما قد يعيقهما من الحياة ومن داخلهما، أو يفترقان قبل أن يسبب كل منهما للآخر ألما جديدا، ألما بات وجوده قد لا يُحْتَمَل أو قد يحتمل ببعض الحب.

***

الغرفة/ في اليوم التالي صباحا

– يابن اللذينة، طبقت عليها؟!

قالها يوسف وهو ينظر إلى القصة وينظر لي بملامحي التي أصبحت تشبه المدمنين من السهر، فابتسمت له وقلت:

– دا لسه في واحدة تانية، أنا خلصت قصتين إمبارح.

– قصتين؟ ازاي؟

– بعد صلاة الفجر كنت بتفرج على فيلم رعب كده جابلي فكرة حلوة، مش نحت بس فكرة مختلفة شوية، سهرت عليها وخلصتها.

– يابن اللعيبة، لا دانا أتفرج بقا.

– قبل ما تتفرج، عملت إيه ف العِجْل اللي ف الأوضة التانية؟

– الشرطة جت خدته، طلع رجل أعمال وبتاع، يعني ساعتين وهيخرج.

– طيب خلاص، خلص إنت قراية، وأنا هروح لقمر أطمنها عشان تحمي نفسها لأنه أكيد مش هيسكت.

قصة/ عقد الشراكة

(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

(الخوف لا يمنع الموت،

الخوف يمنع الحياة)

...

ربما تلك الحكمةُ إحدى أسسِ حياتي التي لم تجعلني أنجرف خلف موضةِ الشباب في هذا السن وهذه الأيام من مشاهدة أفلام رعبٍ وقراءة قصصٍ مخيفة قد يقشعر بدنك من قراءتها والبحث خلفَها، وذلك بادعائي أنني لا أؤمن بوجود كل شيءٍ يصدقونه في القصص، وأن الجن انتهت نقاط اتصالنا بهم منذ عهد سيدنا سليمان، وأن الله جعل بيننا وبينهم سترًا لا يمكن لأحدٍ فتحه، والعديد من الكلام الذي لم يكنْ يعجب الكثيرين، بل وكان يسبب ضيقًا أكثرَ لكثير ممن يتناقشون معي.

وبالرغم من أرائي تلك فإن أحد أصدقائي وأقرب جيراني إليَّ رغم اختلاف السن بيننا هو أشهر كاتب لقصص الرعب في مصر وربما الوطن العربي، إنه الدكتور (عايش علام) يقطن بالدور الرابع وأنا أقطن بالدور الخامس، لطالما كان رجلًا طيبًا، ليس متزوجًا وإنما يحييا وحده

هو وقطته اللطيفة وحسب، ورغم حواراتنا الدائمة بأنه يحاول إقناعي بوجهات نظرِه وأنا بوجهاتِ نظري إلا أن هذا لم يفسد للود قضيةً، بل كنت أشعر معه بمتعةِ الحوار كما كان يشعر بها معي دوما، حتى وإن انتهينا بأنه (لا لا إنت مبتفهمش حاجة ومش هتناقش معاك تاني) سواء مني أو منه.

كانت الإشاعات لا تخلو أن تصيب ذلك الرجل، فمنهم من قال أنه من عبدة الشيطان، وأنه دائما مختفٍ عن النظر حتى وقت صلاة الجمعة لا يراه أحدٌ، ومنهم من قال أنه يسلم نفسهُ لجن ليتحكم به، فهم يسمعون همهماتٍ وحوارات كثيرة داخل شقته، ورغم ذلك لم يهمه هو في شيءٍ، ولم يهمني أيضا فما يهم الإنسان مع الإنسان هو الإنسان الموجود بداخله وحسب.

وفي أحد الأيام.

كان الجو أكثر حرارةً من كل مرةٍ، شعرت بأن الجوَّ يشتعل من الأرض لا من الشمس، وأن العرقَ يتصبب مني بشكلٍ متصلٍ، ورأيت دخانًا يكاد يذيب رئتي تنفسًا، وبعد كل هذا سمعتُ صرخاتٍ من سكان العمارة، إنه من الطابق الرابع، اتجهت مسرعًا إلى ذلك الطابق فوجدت جميع السكان واقفين أمام إحدى الشقق التي تشتعل بقوةٍ كبيرة، كانت شقة دكتور عايش، أصابتني الصدمة فاتجهت مفزوعا لهؤلاء السكان الساكنين فانفعلت عليهم قائلا:

– انتوا و اقفين كده ليه، محدش حاول يعمل حاجة ينقذ الراجل اللي جوا دا؟

– إحنا كلمنا المطافي وهما جايين في الطريق.

قالها أحد السكان فنظرت إليه نظرة احتقار وصرخت بهم:

– هو دا اللي قدرتوا عليه، والراجل اللي هيموت جوا دا؟

– الراجل دا يستاهل اللي بيحصل م اللي بينيله، خلي شياطينه تنقذه بقا والقرف اللي كان بيعمله ينفعه.

لم ألتفت لهم وحاولت كسرَ الباب وبالفعل نجحتُ واقتحمت الشقةَ، كانت كلها بأثاثها وممتلكاتها تشتعل تمامًا، أدرت بنظري في كل اتجاهٍ حتى وجدت دكتور عايش ملقى على ظهره على الأرض وسطَ النار، اتجهت إليه سريعا وحملته على ذراعيَّ متجها به نحو الباب وكانت المفاجأة.

لا يوجد باب، وكأنَّ الشقة صُمِّمت بدونه، إذًا فكيف دخلت إلى هنا، والشقة كلها عبارة عن جدرانٍ وحسب، أحسست بحرارة النار وأن هناك رمالًا بين يدي، فنظرت فكان دكتور عايش، يتحول، يذوب من إنسانٍ كنت أحمله إلى رمال بين يدي، لم أفهم كيف يحدث هذا وحاولت الصراخَ، ولم أستطع من هول الصدمة.

بدأت البحث حولي محاولا فهمَ أي شيءٍ، كان لهيب النار يزداد، وفجأةً بدأ المكان بالتغير من حولي تماما، رأيتني في مكانٍ غريب، ليست شقةَ دكتور عايش، بل إنه سجن، وأمامي ثلاثة زنازين، وكل زنزانة بها شخصٌ واحد، وكان ذلك الشخص هو أنا، عدة صور مني أو خيالات مني أشاهدها وأنا أقف أمامَ عيني، الأول كنت أجلس وحولي شموع

وأقرأ تعويذاتٍ وأنا أطعم قطةً، كانت قطة دكتور عايش بلونها الأسود وعينيها اللامعتين، ولكنني لم أفهم الجمل التي كنت أقرأها، ولكن لمحت بعض الكلمات مثل (أحط، شاهيب، سنور، جعد، قطور).

أما الزنزانة الثانية فكنت أجلسُ أحمل كتابًا أقرأ منه كلامًا غريبًا، وفي هذه الزنزانة كان أحدهم مصلوبًا، كان دكتور عايش بهيئته مصلوبًا، وكان هناك شخص يرتدي الأسود لم أستطع تبين ملامحِه يضرب دكتور عايش بكرباج قويٍّ على ظهره فيصرخُ منه صرخاتٍ عظيمة، لكني لاحظت أن الكلامَ الذي كنت أقرأه كان كأنما يعذبُه أكثَر من تلك الضرباتِ التي يتعرض لها

أما الثالثة فكنت أجلس فيها على الأرض وحولي كائنات صغيرة أشكالها لم أستطع تحديدَها، وكأنها تشبه القططَ في شكلها ولكنها تقف على ساقين فقط، بطريقةِ وقوفٍ أي بشريٍّ تصدر أصواتًا غريبةً وقوية وتلتف حولي بسرعة شديدة للغاية، لدرجة أنني بدأت أصرخ في الزنزانة وتحول صوتي تحولا خشنًا لم أفهمه، وقطرات دم تخرج من جميع أركان جسدي، ارتعبت من هذا المظهر فأغمضت عينيَّ حتى لا أراه، حتى اختفت كل الأصوات من حولي، فبدأت بفتح عينيَّ مرة أخرى، فوجدتني في شقة دكتور عايش كما أنا، وكأنها لم تشتعلْ بها النار قط، كل الأثاث وكل شيءٍ بخير، ولكن كان هناك جدارٌ واحد في الشقة تشتعل فيه النار، بل لم يكن جدارا، كان نفقا محفورا في أحد جدران تلك الشقة اتجهت ناحيته فبدأت النار تهدأ شيئًا فشيئا، دخلت ذلك النفق، كان صوت دكتور عايش ينبع من نهايته، اتجهت بسرعةٍ داخل النفق وكأن صوت الدكتور يعلو، حتى وصلتُ لنهاية النفق، كان آخر هذا النفق

جدار به نافذة صغيرة يخرج منها ضوءٌ، اقتربت منها ونظرت حتى وجدتُ ذلك المنظر، نارٌ كبيرة تحيط بمكتبٍ وأمامه كرسيان أحدهما يجلس عليه الرجل الأسود الموجود بالزنزانة التي رأيتها، وفي يده قطة دكتور عايش يلعب بيديه في شعرها، أما دكتور عايش فيجلس أمامه منهكًا، وكأنه معذَّبٌ تعذيبًا ظهرَ أثرُه على وجهه كثيرا من علامات ضربٍ وغيرها، وكان ذلك الكائن الأسود يقول:

– لقد حاولت فسخ كل شيءٍ بيننا، أنسيتَ الخير الذي أصبحت فيه بفضلنا، لمَ تفعل هذا وأنت تعلم أنه من شروط عقد الشراكة بيننا أنه لا يُفْسَخ إلا بقبض روحك.

– أنا مش عايز حاجة، أنا مش عايزكم، ابعدوا عني.

قالها دكتور عايش وهو مُنهَكٌ ويتلقط أنفاسه بصعوبة.

– تخيل شيطانك مرضيش يعذبك، وكأنه بيستمتع بكل اللي بيحصلك، حاجة جميلة أوي، بالرغم إنك مكنتش العبد الصالح اللي مضايقه، فجبنالك شيطان جارك، الجن بتاعه، اللي كان معترض على أفكارك وطريقتك، دماغه اللي كانت على قد مابتحترمك مكانتش بتطيق الحوار معاك، هو اللي كان بيعذبك بنفسه زي ما إنت شفت، عندما تصبح بين أحد ملوك قبيلة المقاومين لا بد أن تعرف مع من تتعامل، نحن قوم من الجن لنا اعتبار، لا يعصينا أحد، ولا يمكن أن يفكر في ذلك...

ارتعبت من تلك الجملة، بل وصُدِمْت، هل لكلِّ إنسانٍ منا شيطان؟ هل لكل شخصٍ شيطان ينتظر فرصةً ليعذبه؟

أكملت النظر فوجدت الرجل يخرج من درجِ المكتب كتابًا كبيرًا مكتوبٌ عليه جملة (عقد الشراكة)، ثم نظر له وقال:

– منحتك كل اللي اتمنيته عشان تبقى كاتب مشهور ومعاك فلوس، وبقيت على اتصال بعالمنا، وراجلنا ف الأرض، وجعلتلك القطة بتاعتك حارس ليك، جن من رجالي موجود ف القطة بتاعتك اللي بتزمجر لما ضيوف بتلمسها، واللي بتعض أي حد مبيعجبكش، وأي حد فاكرها بتحس بيك لا، داحنا اللي حاميينك...

إنت مضيت عقد الشراكة بأفعالك، أي فعل شرير بتعمله بتوقع ع عقد معانا، ولما بتقرر تكشف أي ستروسطنا وتدورف القصص والمعلومات عننا، إنت بتكمل التوقيع، لحد ما بني مقاوم هيغزوا الأرض ومش هيقدروا يقاومونا، عقدك هتكملوا لآخره، وإلا هتفضل ف عذاب طول عمرك.

ثم ألقى القط الأسود على الأرض فبدأ يتحول من قط إلى مخلوق غريبٍ لونه أسود، وله أجنحة وأسنان حادة وأظافر، وحجمه في حجم البشر، وكأنني رأيت الشيطانَ أمام عيني.

ثم أشار لذلك المخلوق بأن يمسك بدكتور عايش، كانت أصابعه ذات لون أسود وأظافره طويلة للغاية، لم أستطع تحملَ المنظر، كم كنت خائفا، وكأنني أصدق كلَّ ما أرى، ماذا أفعل؟

قام ذلك المخلوق بحمل دكتور عايش، ثم قال له ذلك الرجل الأسود:

– ماذا تختار؟ أتكمل العهد أم تُصْلَب من جديد؟ أو هناك حلٌّ ثالث، اخترشخصًا يكمل عنك العهد ولتبتعد الولاية عنك؟

نظر دكتور عايش له وعيناه تدمع ونفسه ينقطع، ثم قال:

– اختاروا أنس من عذبني، إنني أختاره.

وهنا سحبت نفسي، لم أكن أصدق، حاولت الخروج مسرعا من النفق ولكنه كان مسدودا، بدأت الصراخَ، الصراخ وحسب، الصراخ حتى أغشيَ عليَّ وكأنني لم أدرِ بشيء، وقمت من سباتٍ عميق لا أرى شيئًا سوى جيراني حولي، وقالوا لي:

– حمدالله ع السلامة، قلنالك يابني متدخلش، أديك كنت هتروح فيها.

أخذت نفسي بصعوبة وبدأت أستوعب ما حدث وجدتني في مستشفى وجيراني حولي، قال أحدهم لي:

– إنت ربنا نجدك، النار وقعت خشب من السقف عليك بس المطافي لحقتك.

– ودكتورعايش؟

قلتها، فنظروا لبعضهم البعض وقالوا:

– مات، مات قبل مالمطافي تيجي بدقيقتين، عمره.

وسمعت ذلك الخبر فصدمت، كيف هذا؟ كيف يموت؟ ألم يخترني؟ هل قتلوه؟ وهل كل ما رأيته حقيقة؟

بعد تحسن حالتي الصحية اتجهت للمنزل وصعدت إلى الطابق الذي أسكنُ فيه، وجدت القطةَ، قطة دكتور عايش تجلس أمامَ باب شقتي، حاولت إبعادها ولكنها لم تفعل، ارتعبت منها، لأول مرة أشعر بالخوف منها، فتحت وعبرت من فوقِ جسدِها ودخلت مسرعا مغلقًا بابي.

نظرت بالشقة حتى رأيت ذلك المظهرَ، أضواء شموعٍ حوالي تسعة شموع على منضدتي في شكل مربَّعٍ، وفي وسطهم رسالةٌ على ورقة، اتجهت والتقطتها حتى قرأت التالي:

(إليك، يا من اقتحمت الستر كما فعل العبد الذي قبلك، لقد اختارك هو قبل موته بنصفِ دقيقة، لو صبر قليلا لربما كنتَ في أمان، وربما لا، فلقد اقتحمتَ سترنا، تلك الكلمات التي كنت تقرأها في الزنزانة هي كلماتُ تحويل ذلك الحارسِ لقطٍّ، والذي يقطن أمام بابك، لقد كُتِب عليك الدور، لقد كُتِب عليك عقد الشراكة القادم، والموجود في دولابك الآن وادخل وافتحه، ولتعتني بحارسنا وقطنا، فلربما كان سبب حمايتك أو تعذيبك يوما، العقد موجودٌ، وقبيلة الجان في انتظار من يكون جندًا له على الأرض بين البشر، سنصل لك بطريقتنا، فاستعد).

ما إن قرأت ذلك الخطاب حتى سارت البرودة في كل جسدي، لماذا أنا؟ لماذا أفعل كل هذا ويحدث هذا لي؟ هل لأنني لم أصدق؟ أو لأنني تدخلت؟

وانطلقت مسرعًا إلى دولابي وفتحت الباب مرتعبًا، كان الكتاب، عقد الشراكة موجودًا بالفعل في دولابي، التفت فوجدته.

يجلس على سريري، بزيه الأسود، بيديه وأظافره، رأيت وجهَه هذه المرة، كان أسودَ للغاية بعينين خضراوين، وفروٍ غريب يغزو وجهه، لم أصدق ما رأيته، ولم يستطع لساني أن يلفظَ بكلمة، وصل بتلك السرعة، كان مرعبًا، صدقت وآمنت بكل شيءٍ حتى قال:

– ألم أقل لك أننا سنصل لك؟ هل أنت مستعدٌّ يا ابن الأرض؟

لم أنطق حتى قام من مكانه، وأنا تسمرتُ في مكاني، لم أستطع الحديث وكأن الأصوات لا تخرج من أحبالي، حتى قام بيده المشعرتين ووضعها على كتفي وكأنه يربط عليه، وقال بصوته المرعب الهادئ:

– مبروك علينا بطل جديد.

***

طرقات المستشفى

في نفس التوقيت الذي يقرأ يوسف قصته...

حاولت الإسراع بكرسي المتحرك إلى مكتب قمر وكأنني أصارع الزمن بدون سيوف، أو شعرت أنني طبيب يسرعُ لمريضته كي ينقذها، وكأننا تبادلنا الأدوار، فأصبحت أنا الطبيب وهي المريضة، هل أحبها؟ أأنا متأكدٌ بالفعل أني أحبُّها، أم أنني كنت بحاجةٍ في وقت الصعب لشخصٍ يفهمني، ويدعمني، ويقدر تفاهاتي ومشاكلي التي لا تنتهي حتى وإن بتُّ ليلا في فراش المرضِ مقيما، أم أنني أحببتها بالفعل، أعتقد هذا، لست متأكدًا، ولكن الحروب لا تقوم إلا من ثلاث: حب أنثى، أو القضاء على الفساد، أو إشباع رغبة عدوانية في احتلال أي مكان، وربما يكون الثلاثة سببهم أنثى.

فكيف أقحم نفسي بهذه الحرب وأنا غير متأكدٍ من حبي لها، أم أن هذه الحرب هي رسالة التأكيد؟

وصلت إلى باب مكتبها، طرقت باب الغرفةِ، فلم يستجب أحد، طرقته مرةً أخرى وكأن صوتَ صرصور الحقل يغزو الهدوء التام كبعض أفلامِ الرسوم المتحركة، نظرت إلى إحدى الممرضات التي تمر في الطرقة.

سألتها:

– بعد إذنك، دكتورة قمر مش موجودة؟

– دكتورة قمر خدت أجازة مفتوحة المدة النهارده الصبح، وسابت المستشفى ف حدود الساعة 10.

قالتها وكأنها أنزلت صاعقةً على رأسي، لم أشعرْ بنفسي إلا وأنا أمسك يد الممرضة.

– متعرفيش ساكنة فين بسرعة، انطقي.

لم أتوقع نبرة صوتي، ولم تتوقعها هي لدرجة أنها شعرتْ بالرعب لما فيها من غلظة فقالت:

– المستثمر الصغير، هنا ف أكتوبر، عمارة رقم 23، بس معرفش الدور الكام.

قالتها فأسرعت بالكرسي نحو الغرفة ليوسف، لماذا لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن أبدا، لماذا علينا الصراعُ والبحث، هل عليَّ إكمال الحرب؟ أم أن رعبي وقلقي عليها دليلٌ آخر، دليلٌ أنني أحبها.

– يوسف، أنا لازم أخرج، لازم أروحلها.

– إنت إتجننت، يابني إنت لسة يدوبك عارف تدوس على رجلك، مش هينفع.

نظرت له، لم أتوقع كل الكلام الذي كنت سأقوله له مطلقًا.

– يوسف، أنا الدنيا خلصت عندي من الأحلام، مبقاش عندي حاجة أحلمها، كل أحلامي إني أخلص من المشاكل، أخلص من أي تعب، أو يمكن أحلام بس بسيطة، يفضل ف حياتي

الناس اللي بحبهم، ميبعدوش عني، لحد ما قابلتها، هي كملتلي كل أحلامي، بقيت حابب أشوفها، أحكيلها عني، أسمع صوتها، بقيت حابباها جنبي، ولأول مرة بقولها بقيت حابب، أنا بحبها يا يوسف، ودا أول حلم ليا بجد، لو مدافعتش عن حلمي يبقى مستاهلش أفكر إني أحلم تاني أصلا... عشان خاطري يا يوسف ساعدني.

اقترب يوسف مني فاحتضنني حضن الأخ لأخيه، ربما كنت أحتاج هذا الحضن حقًّا، وكأنه يؤمن ظهري ويخبرني أنني لست وحدي، وقال لي:

– هكمل بقية حساب المستشفى وهنمشي، هنروحلها.

***

السيارة/ الطريق إلى منزلها

كان يوسف يقود ببطءٍ على غير العادةِ بينما كنت أجلسُ بجانبه ولأول مرةٍ سأسير بعكازي، وكأن هذا اليوم هو اليوم المناسب لجميع التحديات، كنا نسير حسب خرائط جوجل، تلك التي تأخذُ وقتا أطول ولكن قد تساعد كثيرا، أو ربما لا.

– يابني إحنا عدينا من قدام 5 مدن لحد دلوقتي، إنت متأكد أن المستثمر الصغير معدتناش.

قلتها أنا، فرد يوسف:

– يابني حسب الخر ايط دي إحنا ماشيين صح.

– وبعدين يا جماعة أنا كده قلقان يكون دكتورة قمر جرالها حاجة.

قالها محاق الذي أصرَّ أن يأتي معنا بكل الطرق، فارتعبت من جملته وقلت:

– أبوس إيدك يا عم محاق مترعبنيش.

– مش برعبك بس لازم نتحرك أسرع من كده.

فزاد يوسف من سرعته وبدأ يسير في جميع الاتجاهات لدرجة أن بعض السيارات باتت تصرخ بأصوات تنهيها، وربما بعض الذين يقودون

صرخوا بسباب مس أهل يوسف وأهلنا جميعا من أولادي إلى أكبر جد منذ أيام المصريين القدماء، حتى وصلنا إلى المدينة والفضل يعود للأشخاص الموجودين بالطريق لا لتلك الخرائط مطلقًا.

وصلنا أمام المنزل، منزل رقم 23، نزلنا من السيارة، حاولوا أن يسندوني لمجرد النزول، ولكنني فضلت أن أسير على قدمٍ واحدة رافعا قدمي اليمني معتمدًا على عكازي وحسب، كل ما كان يشغل تفكيري كانت هي، ماذا سيحدث لي لو فقدْتُها؟ ولماذا كل تلكَ الأفكار السوداء، ولكن ماذا لو حدثت، أنا أحببتها، وأحببت كلَّ شيءٍ معها، وكلَّ شيءٍ فيها، أحببتها لما هي عليه، والآن أحبها أكثرَ لما أصبحت أنا عليه معها، وتأكدت أخيرًا أنني أحبها بعد أن وجدت فيها ما يربط قلبي بالحياة.

دخلنا العقار الموجود به شقتها، كان بابُه مفتوحًا، تعجبت من عدم وجود حارسٍ للعقار، كيف سنعرف المنزلَ، حاولنا البحث فخرجَ لنا أحد الشباب من غرفة حارس العقار كان مفتولَ العضلات (بمنظرٍ مريب) أشعر أنه يتدربُ في نفس الصالة الرياضية التي يتدرب بها ذلكَ المرعب الذي نخشاه، قال لنا بصوتٍ غليظ وهو يخرج:

– إنتو مين! وبتعملوا إيه هنا!

– إحنا بنسأل على شقة دكتورة قمر بتاعت مستشفى دار الفؤاد.

قالها محاق، فنظر لنا ذلك الشاب، ثم أخرج مسدسهُ مسرعًا ورافعًا صوته:

– إثبت مكانك إنت وهو يالا.

وفي نفس لحظة إخراجه المسدس رفعتُ عكازي وضربته به على يديه ضربةً قوية فسقط المسدس من يديه، فهجم عليه يوسف ومحاق ودفعوه نحو إحدى جدران الساحةِ وهم يوسعونه ضربًا في فكيه وفي بطنه، بينما هو لم يستطع المقاومةَ بسرعةٍ من هولِ المفاجأة، وكعادتي، بعكازي أضربُه في تلك المنطقة التي قد تقضي عليه مستقبلًا، أشك أن أصحاب تلك الصالة سوفَ ينجبون أطفالًا مرةً أخرى.

أمسكه يوسف من ملابسه بينما أخذ محاق ذلك المسدس الذي سقطَ منه على الأرض وقال له:

– لو عايز يومك يعدي، قولي الزفت اللي مشغلك ف شقة كام ومعاه كام واحد.

– هو لوحده، الدور الرابع، الشقة اللي على اليمين.

قالها بنفس متقطع فقلت له:

– شكرا.

وضربه محاق بظهرِ المسدس على رأسه ضربةً قويةً جعلته يسقط مغشيًّا عليه تماما، فنظرت لهم وقلت:

– لازم منثقش ف كلامه، محاق إنت اللي معاك المسدس، اطلع ع السلم واحنا هنطلع ف الأسانسير.

فهز محاق رأسه واتجه نحو الدرج واتجهنا نحن نحو المصعد فقال يوسف:

– يعني إنت ملقتش غير المسن اللي فينا يطلع ع السلم، وبعدين هو في حيل يعرف ينشن.

برغم خوفي وتركيزي، لم أتمالك نفسي من الضحك الخفيف، أو ربما أن روح دعابته لا تنتهي حتى في أسوأ المواقف.

ركبنا المصعد وضغطنا زرَّ الطابق الرابع ونحن في تركيزٍ شديد، خرجنا من المصعد فشعرت بشيءٍ ما في منتصف ظهري، كان مسدسًا، نعم أشعر به جيدا، بينما أمامنا كان شخصٌ آخر لكنه يصوبُ بنفس المسدسِ في رأس يوسف، فنظرت ليوسفَ لأجده قليل الحيلة مثلي تمامًا، حاولت النظرَ نحو الدرج فرأيت ظلًّا يصعد إلى السلم ببطء، فنظرت ليوسف مرةً أخرى وكأننا فهمنا لغةَ عيوننا معا تلك المرة.

هجم يوسف على ذلك الذي سكن خلفي بينما هجمت أنا على الذي يصوب ناحيته بعكازي أسقطَ المسدس، حتى شعرت بيده تصدمني في وجهي بضربةٍ أسقطتني على الأرض، بينما يوسف كان يصارع مع ذلك الشخص الآخر، وكل واحد منهما يمسك المسدسَ بأعصابٍ شديدة لا يتركها للآخر، أما الذي أمامي فاتجه يحضر المسدسَ ليقتلني به وفجأةً دوت أصوات طلقاتٍ للرصاص، كانتا طلقتين سقط على إثرهما اللذين كانا أمامنا، نظرنا أنا ويوسف لبعضنا البعض مذهولين، كان محاق ممسكًا بالمسدس وهو صاحب الطلقتين القاضيتين، نظرت له ثم نظرت ليوسف فقال يوسف:

– أنا آسف، أحسنت الاختيار.

فذهب محاق ويوسف ناحيتي محاولين مساعدتي على الوقوف

مرةً أخرى، فنظرنا نحو الشقق الموجودة بالعقار، كانت هناك شقتان، فقلت:

– الشقة أهي، هنخشها ازاي مش عايزين نعمل شوشرة.

– إنت بعد صوت الطلق دا ولسة مش عايز تعمل شوشرة.

كان محاق المتحدث، نظرت له ولكلامه، ولأجل الحق كان محقًّا للغاية.

اندفعنا نحن الثلاثة نحو الباب بقوة شديدة، مرةً ثانيةً، ثالثةً بقوة أكبرَ حتى انكسر الباب فعلا، فوجدت ما لم أكن أتوقعه، كانت هي تجلس على الأرض تبكي بكاءً شديدًا أما هو فمغشي على الأرض بالقرب منها، لا أفهم إن كان ميتا أم أغميَ عليه، جريت نحوها سريعا، اختطفتها في حضني، عانقتها، وكأنني ملكتُ الدنيا، ملكتُ كل معاني الحياة، وكأني جمعتُ كلَّ أحلامي في حضنها، أشعرُ أن جميع معاجم كلمات اللغة العربية لا تكفي وصفَ ما شعرت به، شعرت لوهلةٍ بجميع آلات الكمان تعزف تلك اللحظة، شعرت أنني ملكٌ للدنيا، صحيح أنها دنيا مليئة بخوف ورعب، ولكنها دنيتي، وكأنني أكتب عهدًا أنني لن أفارقها، أكتب عهدًا بأنني كنت خائفًا عليها، أكتب عهدا بأنني كنت أحبها.

نظرت إلى ملابسها كانت شبهَ مقطعة، ليس تقطيعًا عظيما، ولكنه يبدو أنه حاول الهجوم عليها، أبعدتها عن حضني وأمسكتها من وجهها وقلت لها:

– حصلك حاجة؟ عمل فيكي حاجة؟

فهزت رأسها وهي تبكي بالنفي، فابتسمت لها واحتضنتها مرةً أخرى، وفجأةً بدأت أسمع صوتًا غريبًا، كان هو بعدما كان ساقطًا على ظهره اعتدل على جانبيه وهو يبصق دمًا ويتألم بشكلٍ غريب، كان شكله مفزعًا وملامحه تشعر بالذبول الشديد عن آخر مرةٍ رأيته بها، أمعنت النظر به فوجدت محاق يتجه له وينظر له نظرةً شعرت فيها من الشماتة ويقول:

– محمود أبو الحمد، واضح إن النهاية قربت، غريبة إنك مفتكرتنيش يوم المستشفى، ولا فاكرني دلوقتي، السرطان غيرني، بس أنا لسه زي مانا، والنهارده بحقق إنتقامي، بحقق السنين إللي فضلت فيها عاجزف السرطان، كان نفسي تتعذب أكترمن كده، بس واضح إن التجربة بتاعتي كانت أنجح بكتير.

نظرت له وأنا لا أفهم شيئًا، فنظرت ليوسف عسي أن يفهم شيئًا، فلم يفهم أيضا لكنني أمعنا النظر أكثرَ إلى محاق الذي كان يكمل حديثه:

– محاق، أنا محاق عبد الدايم، فاكرني كويس. إللي قضيت عليه، أديه رجعلك وانتقم، شايف نفسك كويس، افتكر، افتكراللي عملته من 7 سنين، افتكراللي عملته ف محمد مدين ومحمد فتح الباب، الغلبان اللي عملت فيه كل الظلم، اللي بعدته عن ابنه الوحيد، حتى مفرحش بإنجازاته. أديك بتموت بنفس المرض، بتموت بسببه يا محمود، بتموت باللي عملتهولي طول عمرك، اشرب بقا.

نظر له محمود في ضعف ووهن وهو يبصق من فمه ما يبصق ثمَّ نظر إلى محاق مرةً أخرى وقال:

– أنا كنت فاكر إنك خلاص، انتهيت.

فابتسم محاق وقال:

– ومين يبقى كابوسك ف الدنيا غيري؟ وبالمناسبة أنا إللي بعتلك الرسالة عشان تيجي وتعمل إللي تعمله ف المستشفى، كان معاد خلاص إني أخلص منك، وأديني نجحت.

فبدأ محمود الاعتدال في نومته وهو يملي عينيه من وجه محاق جيدًا، ثم أدخل يديه في جيبه سريعا وأخرج مسدسه فأمسك محاق مسدسه في يده جيدًا وفي لحظة أطلق كلاهما النار على بعضهما البعض:

– باباااا.

قالها يس في صراخ بينما صرخت قمر من هول المنظر ويبدو أنها حاولت الاختباءَ منه في حضني، ضممتها إلى جيدًا وأنا أغمض عيني، لم أفهم شيئا، وكأن الزمن توقف عند تلك اللحظة، رأيته يسقط بالتصوير البطيء، يسقط معلنًا الفراق، بينما كان الآخر مفارقًا من قبل أن يسدد المسدس في صدره، مظهر الطلقة وهي تخرج من قلبه وكأنه يسدل الستارَ عن آخر لحظات المسرحية وفصولها، تركتُ قمر التي كانت تبكي بكاءً شديدا، اتجهت نحوه متعبًا، مبتسما، يلفظ أنفاسه الأخيرة في رضا شديدٍ واقتناع بالغ بأنه على حقٍّ، ابتسم في وجهي وأنفاسه الأخيرة تتنافس على الخروج أولا، اقتربت منه فقال لي:

– اسمعني كويس، أنا عارف إنك مش فاهم حاجة ف كل اللي حاصل، وعارف إنك عرفتني ف المستشفى وعملت متعرفنيش

زي ما طلبت، بس أنا عايز أقولك إنك واحد من أعظم الناس اللي شفتها ف عمري، جوا أوضتي تحت الكنبة كاتب قصتي، خدها، إقراها، انشرها، وخد بالك منها، ومتوقعش نفسك ف المصايب تاني، الرياح عمرها ما بتيجي زي مالسفن بتعوز، بس إحنا ممكن بنبحر على مزاجنا.

قالها ثم سحب آخر نفس له، واختفت ابتسامته، واختفى محاق، اختفى أبي، أبي الذي ذهب عني قديمًا بعدما ترك الطب الشرعي وعمل بالصحافة، والذي لم أفهم سبب هروبه عنا حتى اليوم، عرفته ولم يعرفه يوسف بسبب تغير شكله من المرض، لم يصدق أنه هو، تمنيت لوهلة أن أختبئ في حضنه مثل الأطفال، ولكنه كان طلبه قبل الهروب، عندما أراه فأتظاهر بأني لا أعرفه، وهنا شعرت بالشيخوخة والخوف وكأنني أتذكر جملة أحمد خالد توفيق: **[أنت تشيخ عندما يشيخ أبوك، أنت تموت عندما يموت أبوك]**. ومن هنا انتهى نصف القمر الذي لا يزور السنة إلا قليلا، وانتهت شخصية لا تأتي في العمر إلا مرةً واحدة، انتهى المحاق، ولم يبق لي سوى القمر، القمر وحسب.

***

المستشفى/ غرفة محاق

أثناء تحقيقات الشرطة في الغرفة...

ادعيت أنني كنت أقرب الناس لمحاق أو لأبي في آخر أيامه لكي أقف بجانبهم أثناء التحقيق والبحث، كان أغلب بحثهم في الأدراج والبلكونات لكنني جلست على الكرسي، الكرسي الوحيد الموجود بالغرفة، الموجود به قصته، فكرة كسر قدمي جعلتهم يسمحون لي بالجلوس، لكنني لم أستطع وضع يدي في الكرسي لأخذ الأوراق، حتى خرج ضباط الشرطة بعدما قالوا:

– هنقفل الأوضة لحد مالتحقيقات تخلص، إتفضل يا أستاذ يس.

اندفعت من مكاني وحاولت الوقوف وأنا أحمل هاتفًا نقالًا في يدي ثم أسقطه عن غير عمد، فأصبح العديد من القطع منهم البطارية التي ذهبت تحت الكرسي، تماما كما طلبت، ادعيت أنني أنحني لأحضرها وبدأت أبحث بيدي أسفل الكرسي فشعرت بغلاف مفكرة صغيرة تلامس أناملي بسهولةٍ شديدة سحبتها ببساطة، وحاولت إخفاءها وأنا أحاول أن أقوم من الأرض مرة أخرى، ويبدو أنني نجحت فلم يلاحظ أحد بسبب حديثهم معا، وكأنه كنز أصارع قدمي المكسورة بسببه، ويبدو أنني نجحت في الحصول عليه.

خرجت من الغرفة في هدوءٍ تام وكان يوسف ينتظرني، نزلنا سريعا إلى السيارة، أجلسني يوسف على كرسي سيارته وركب هو وبدأ القيادة، وفتحت تلك المفكرةَ، كانت مكتوبةً بخط يده، ولكنها كانت صفحات لم تكن كثيرةً بالشكل الذي تخيلته، يبدو أنه لم يسجل قصةَ حياته بل أنه سجل قصةً واحدة أو سبب كل ما يحدث وحسب.

نظر لي يوسف أثناء قيادته وقال:

– أنا عارف إنك حزين وتعبان، بس إنت هتفهم حاجة من دي، ولازم القصة دي تكتبها، إحنا قدامنا 4 أيام والمهلة تخلص.

فنظرت له وقلت:

– مش لما أعرف فيها إيه.

– طب ما تقرا وتسمعني ولو كده نروح ونكتب.

نظرت له، كان عقلي يضيء بفكرةٍ هو صاحبها، ماذا إن كان كل ذلك القدر ليجعلَ تلك النهاية بدايةَ قصةٍ جديدة، فدائما البداية تأتي من أصلِ نهاية، لا يوجد بداية تأتي من ثقب أسود أو من لا شيء، هل نهاية محاق؟ هي بدايةٍ حياة أخرى لـ يس؟

قصة/ محاق

(عبد الرحمن بومدين)

❁❁❁

شكر خاص لصديقي/ عمرو ماهر.

❁❁❁

«مرض التفكير ليس له علاجٌ حتى لو استطعت أن تنام ستحلم بما تفكر به»

-ألباتشينو-

❁❁❁

كثرة التفكير لعنةٌ، سرطانٌ يسير فوق الأرض، نوعٌ من الكهرباء التي تصل إلى العقل دون أسلاكٍ أو توصيلات فتصيبه كالمنبهات فيجلسُ ساعاتٍ وساعات يفكر ويدقق ويحلل ويناقش، حتى وإن وجد الحلَّ فإنه يفكر بعد حل المشكلة: هل انتهت أو أن لها فروعًا أخرى؟ هل كان ذلك أفضل حلٍّ أم أن هناك الأفضل والأفضل، هل تسير الأمور كما أردت أم أجهز وضع الاستعداد لأي صدماتٍ قادمة.

يبدو أنني أبالغ.

ما زلت أتذكرُ تلك الجملة التي بعثها أحد القراء إليَّ.

«أشعر أنك مبالغٌ قليلا، أو مبالغ في كلِّ شيءٍ، أنت تفكر أكثر من اللازم، عاشقٌ للتفاصيل أكثر من اللازم، مبدعٌ في مجالاتك أكثرَ من اللازم، محبٌّ للهدوء وبعيد عنه، تكره المشاكل ومستمعٌ جيدٌ لها، لا تحب ادعاءَ الفضيلة، ولكنك تملك الكثيرَ منها، لم أرك تحب إحدى النساء من قبل، ولكنك عندما تفعل ستحبها بشكلٍ بديع، وقد يكون بديعا أكثر من اللازم».

لم أعرفكم بي بعد، تعلمون بحكم الوظيفة فلا بد من البداية بمقدمة حتى وإن كان ليس لها علاقة بالموضوع، أنا صحفي بالمناسبة، اسمي محمد مدين.

إن كنت لا تتابعني فإنني أكتب في جريدة (الشهاب) كل يوم خميس في باب (أقلام ليلية) وهو باب لاستعراض بعض الخطابات التي تأتي لي عبر صندوق البريد ومناقشة قضاياها والتحقيق وإعطاء الحلول والنتائج كلما أمكن.

وإن كنت لا تعلم ما هو صندوق البريد فيمكنك سؤال السيدة والدتك عن أغلفة مسحوق الغسيل التي أرسلتها منتظرةً جائزة الجنيه الذهب، وفي النهاية لم تفز سوى بكوبٍ لوضع المسحوق في الغسالة أو إن كنتم أصحاب حظٍّ للغاية فستكون قد فازت بمنشفة بيضاءَ عليها غلاف الشركة.

أما إن كنت من متابعيني فتلك المقدمة القصصية لا تعنيك في شيءٍ يا صديقي.

تبدأ القصة في صيف عام 2013، كان موعد المقال الأسبوعي وعليَّ تحضيره بشكلٍ مكثف، طلبت من ساعي البريد تحضير قهوتي الخاصة، وبدأت بتفحص الخطابات بعنايةٍ وكأنني أذوب بين الأظرف والطوابع المختلفة من كل حدبٍ وصوب حتى قابلت ظرفا أحمر، أينعم، كما رأيتم: ظرفًا أحمرَ، يبدو أن صاحبه صممه بنفسه ووضعه في البريد –وهي فكرةٌ عبقرية بالمناسبة– فقد نجح أن يلفتَ نظري، أمسكت الخطاب، وبدأت أن أتفحصه، كانت عليه جملةٌ خارجية بخط جيد، لقد قابلت العديد من الخطوط لو كنت شامبليون لحصلت على جائزة نوبل في فك رموز خطاباتِ بشرٍ لا قدماء مصريين، كانت الجملة (أنا الشاكي، أنا الباكي، أنا الحساس، وأنا لغير الله ما خضعت لراس).

شرعت في بداية الخطاب، كان باللغة العامية.

***

دا شعاري في الحياة.

ممكن كتير لما يعرفوا قصتي، يقولوا إنت خسرت أكتر بعزة نفسك، وممكن ناس تقول إنت كسبت أكتر صحيح، إنت خسرت كتير بس كسبت ف الآخرة أكتر.

أنا هسيبلكم إنتم الحكم واختاروا وقرروا.

أنا مجرد موظف في الجمارك، بشتغل دوبل أوردر علشان أوفي مصاريف بيت لمراتي ولابني الرضيع، يوم متكرر، أروح أتفحص البضاعة وأراجع، السليم يتعدى، اللي مش سليم يتصادر، وضع عادي وطبيعي جدًّا...

لحد ما في يوم من الأيام...

جت عربية نقل كبيرة نزل منها راجل ببدلة وشكله محترم، أو من علية القوم، قدم ورق البضاعة لمبيدات حشرية، طبعا إحنا عارفين بلدنا مبتمشيش غير بالمحسوبية، للعلم بالشيء أنا خريج كلية علوم قسم كيميا بتقدير امتياز بس ابن رئيس الجامعة كان حظه أوفر بالوظيفة.

جيت الجمارك بدل ما أبقى معيد ف الكلية.

بغض النظر كعادتي بشوف ورق البضاعة وبشوف مكونات البضاعة متصنعة من إيه كنوع من إشباع هوايتي بدراستي يعني، وأنا بقرأ ورق الشحنة وقعت عيني على مادتين لا يمكن يختلطوا ببعض نهائي، شرح الحكاية دي هياخد وقت.

بس أقدر أقول أن علشان مادتين زي دول يتجمعوا لازم تكون تحت درجة حرارة عالية متتحملهاش علبة المبيد ودا معناه أن البضاعة غير اللي ف الورق بل وإنو في تزوير كمان ف المكونات...

وقعة الشاطر بألف كالعادة، بكدة اكتشفت أن البضاعة دي فيها حاجة، فرحت سألته:

– المبيدات دي تبع شركة إيه؟

– ما الورق عندك وبسرعة علشان ورايا طريق طويل.

قالها بنفخة كده ونفس:

– يا سيدي ادينا بندردش.

– أنا معنديش استعداد للدردشة بعد إذنك، ولا إنت و اقف هنا مستني مساعدة أو مبلغ، لو مستني قول ونخلص.

طلعت علبة سجايري وولعتها قدامه وقلت:

– تعرف يا أستاذ، أنا عشت حياتي كلها مشوفتش يوم حلو، لا ف دراسة ولا شغل، ولا عيشة، هاجي أوقفك عشان تديني ظرف فلوس يسدد قسط التلاجة اللي عليا و أقعد بقية الشهر بعيد نفس حياتي، هههه يا راجل عيب يعني.

بصيت للعمال اللي ورايا وأمرت بمصادرة البضاعة والظباط اللي في الجمارك قبضوا على الراجل دا، وانتهى اليوم، قلت أروح وآخد عينة معايا من البضاعة أعرف إيه دا، وروحت قعدت مع مراتي وحكيتلها كل حاجة ماعدا إني خدت عينة من البضاعة اندهشت من اللي حصل صحيح اندهاشها كان باين منها الخوف لا الناس دول يأذوني، بس قلتلها خليها على الله وحاولت أطمنها على قد ما قدرت.

المهم بالليل وهي نايمة قمت وجبت أدوات التحليل اللي محتفظ بيها من أيام الكلية وبدأت أحلل المادة إلى أن اكتشفت أنها عبارة عن

مواد مبيدات حشرية تتجمع هنا في مصر وتتسخن في درجة حرارة معينة ويضافلها بدرة جماجم، وشوية مهدئات يبقى هيروين لو شميت منه كمية محترمة خلاص بينك وبين الأخرة الصراط.

طلعت ورقتي وبدأت أكتب الملاحظات، وفتحت النت والكتب بتاعتي القديمة عشان أتأكد من المعلومة دي، ولقيت فعلا كل إللي حسبته لقيته، كل اللي كتبته فوق كان صح فعلا.

جمعت كل الملاحظات وكل اللي وصلتله وكتبت إقرار بإني مسؤول عن كل معلومة بقولها، وقررت إني تاني يوم هروح أقدم بلاغ ف الشركة دي ف النيابة.

تاني يوم، الساعة 9 الصبح، رحت على النيابة، قبل مادخل جاتلي مكالمة كانت من رقم مجهول، فتحت ورديت كان صوت غليظ أوي قالي:

– اللي معانا دايما كسبان وإللي قصادنا خسران، خليك معانا أحسن ما تبقى علينا، وإلا فعلا هتخسر كل حاجة.

بالمناسبة أنا توقعت إنهم هيتصلوا، فقلت بكل هدوء:

– خلصت؟

ومحدش رد، فقفلت المكالمة وطلعت بسرعة.

وبعد ساعة كان البلاغ متقدم، وصدر أمر بالقبض والبحث عن أصحاب الشركة دي، وطلبوا مني أستنى معاهم وخصوصا إن أنا وعمال الجمارك شاهدين على اللي حصل، وهنا كانت المفاجأة.

الشركة دي مطلعش ليها وجود أصلا، ولا ملفات ولا أي حاجة، والورق كله مزور عشان يعدي من الجمارك، والتحقيق كله كده هيبقى مع اللي اتقبض عليه ف قضية الرشوة بتاعت الجمارك.

بس سمحولنا نروح، وجريت بسرعة على البيت لأن واضح أن اليوم طويل، طلعت بيتنا، كان باب الشقة مفتوح، دخلت من الباب وفجأة شفت اللي شفته، كانت الشقة متكسرة، متبهدلة، العفش مدغدغ، وكأن في معركة أو حرب هنا، ندهت على مراتي بصوت عالي، محدش رد، الكل كان ساكت وكأن أنا واقف في صحرا أوي.

بدأت أدور ف الأوض، لحد ما دخلت أوضة النوم وهنا كانت الصدمة، المنظر إللي لو عدى عليا مليون سنة عمري ما هنساه، المنظر إللي قتلني ودبحني حتى لو أنا مش باين كأني دبيحة.

كانت مراتي مقتولة، وهدومها متقطعة، اغتصبوها قبل ما يقتلوها، كانت غرقانة ف دمها بسكينة ف بطنها، أما ابني الرضيع ف مرمي على الأرض، مخبوط ف دماغه اللي بتنزل دم، الطفل الرضيع سندي، انتهى مرمي، رموه ولاد الكلب ميت ع الأرض.

صرخت صراخًا شديدًا، صراخًا دوى صوته في جميع أركان المنزل والشارع، بدأت تكسير كل شيءٍ أمامي، وأنا أنظر لجثتهما وأنا أصرخ سابحًا في دمهما.

أستاذ محاق، أنا ببعتلك الجواب من مستشفى الأمراض العقلية، لما لقتني قادر إني أكتب، أنا متراقب هنا، أنا متراقب وحاسس بدا، تعالى اسأل عني، تعالي ساعدني.

(محمد فتح الباب)

لم أتمالك نفسي من البكاء، مشاعر ممتزجة متبادلة بين البكاء والصدمة والصراخ مع محاولة تمالك الأعصاب، بدأ محاولة التركيز ببطءٍ شديد وتحديد اتجاهات الأفكار، لم أكن أعرف ماذا سأفعل، ولكن ببساطة، لن أترك شخصًا مظلومًا كهذا يعيش فيما هو فيه.

***

مستشفى الأمراض العقلية العباسية

«من أسس حل المشكلة هو البحث عن أساسها أو مصدرها من بدايتها»

–كتاب التفكير العلمي لحل المشكلات–

❁❁❁

بعد قراءته وجدت أن كلمةَ التفكير لا تليق بذلك المكان الذي ذهبت إليه إطلاقا، كان عليَّ البحث عن كتاب آخرَ مناسبٍ أكثر، كان تصوري لهذا المكان هو أنه مثل مسلسل (الكبير أوي) أو فيلم (الفيل الأزرق)، ولكن في الحقيقة أنني ما وجدت هذا ولا ذاك، فإني لم أجد هؤلاء المجانين الكوميديين الذين رأيتهم في أفلام إسماعيل يس، ولم أجد هؤلاء المرعبين الذين رأيتهم في الفيل الأزرق في الحقيقة أنا لم أر أيًّا منهم أصلا.

اتجهت إلى بواية الأمن، أخرجت من جيبي التصريح الرسمي للزيارة وسألته:

– هو تصريح الزيارة بيقعد أد إيه؟

فنظر إليَّ وقال:

– ربع ساعة، بس المريض دا يا أستاذنا مش موجود، دا اتنقل لمعهد الأورام من يومين.

– معهد الأورام، ازاي دا؟

– اكتشفوا كانسرف الكبد، مرحلة متأخرة، الموضوع منتهي لو عايز تلحقه يا ريت.

معهد الأورام، هل تكون نهايته في هذا المكان، ولماذا يأتي العذاب خلف العذاب بلا راحة، لماذا تأتي النهاية بعد خسارة كل شيء.

***

معهد الأورام

قبل انتهاء موعد الزيارة بربع ساعة...

المصعد لم يكن يعمل، فصعدت على السلم بكل السرعة التي أمتلكها رغم سني، صعدت مسرعًا وكأنني أصارع عزرائيل قبل قبض روحه، صعدت مسرعا للدور الثالث، للغرفة التي قالوا أنه موجود بها (العناية المركزة)، كان أحد حراس مستشفى الأمراض العقلية، اقتربت منه.

– أنا معايا تصريح بزيارة محمد فتح الباب.

نظر الحارس إليه ثم سمح لي بالدخول فدخلت له في هدوء، كان شكله غير توقعاتي إطلاقا، أصلع الرأس، شاحب الوجه، كنت أشعر بضياعه، كان يبصق دمًا بشكل شديد، حاولت الاقتراب منه، جهاز نبضات القلب ترتفع نبضاته، ذهبت إليه:

– محمد، أنا مدين، محمد مدين.

وجدته ينظر إلى بوجهه الشاحب، ثم ابتسم في هدوء وقال:

– محمود، محمود أبو الحمد، صاحب شركات فيوسنس.

نظرت له في صدمة وقلت:

– هو؟

– قا... قابلته... هو اللي سببلي الكانسر دا...

نظرت له:

– محمد؟ كانسر إيه اللي سببه؟

– بعد ما وصلت إن هو، جاللي وقابلني.

***

مستشفى الأمراض العقلية

(وقت الحكاية)

كنت أجلس في عنبري الافتراضي في هدوءٍ بعدما قام أحد أصدقائي ببحثٍ ومتابعة ما حدث كان هو، محمود علمت أنه، وأقسمت على الانتقام، ساعدني صديقي في إدخال هاتف محمول إلى العنبر، قمنا بتهريبه، سجلت حكاياتي وأرسلتها على مواقع التواصل الاجتماعية، كان الموضوع مرعبًا، ولكنه مجتمع يعشق المشاركةَ، فانتشر الموضوع بشكلٍ مهول على المواقع، وكان ذلك يمثل تهديدًا وخطرًا عليه.

فأتى لزيارتي بعدها بأسبوع.

دخل العنبر في هدوء وشموخ، بقوة وغرور، شاب لم يصل للأربعين فأبح قارون على الأرض، دخل إليَّ بنظارته الشمسية ورأسه الأصلع وعضلاته المفتولة، ثم قام بخلع نظاراته ونظر إليَّ في هدوء ثم ابتسم وقال:

– مش عيب؟ أنا كنت فاكر إنك هتتهد!

– و انت كنت فاكر إني هسكت عن مراتي، هسكت عن ابني، تبقى غلطان.

ضحك كثيرا، ضحكات استفزتني.

– المجانين مبياخدوش بكلامهم يا محمد، إنت ف نظر الناس مجنون.

– والظالمين مبيدوموش ف الدنيا يا محمود، وحقي وهاخده، و انت هتموت، هخليك تعيش ألم الدنيا كله، عشان تحس بربع إللي أنا عشته.

ضحك أكثر وأكثر.

– إنت عارف إني أقدر أسحقك هنا، بس تعرف إنت لسة مشفتش ألم.

– و انت هتموت هنا وعلى إيدي.

لم أتمالك نفسي، هجمت عليه، كان جسده أقوى ولكني ضربته في عينيه سريعا فلم يتمالك نفسه إلا بوضع يديه على عينيه والصراخ كأنثى كانت تتوقع من زوجها في ليلة العرس حديثًا وحسب، فوجدته أحد زنوج أفريقيا.

صرخ بشدة فدخل أطباء كنت لأول مرة أراهم بالمستشفى فقال أحدهم:

– ادوله حقنة مهدئة بسرعة.

فسمع من كان معه حديثه وقاما بتكتيفي ووضع الحقنة في وريدي، كانت مؤلمة وسائلها حارقًا ولزجًا، شعرت به يختالني فيسقطني على الأرض، كنت متعبًا مُنهَكًا لا أفهم شيئًا، وتركني بعد أن بصق عليَّ وخرج.

ومرت أيام بعد تلك الحادث، لاحظت نفسي أبصق دمًا كثيرًا، دمًا بشكل رهيب ومخيف حتى منذ أسبوع مضى، وجدت نفسي هنا بسرطان للكبد في مرحلةٍ متأخرة.

***

– و أنا دلوقتي أهو، باخد آخر نفس، أستاذ محمد، ف بيتي في ورق اللي بيدين محمود أبو الحمد، الورق دا موجود ف البيت عندي، روح هاته، هتلاقي المفتاح جنب عداد الكهربا، افضحه بيه، أستاذ محمد أنا صاحبي اللي جاب المعلومات دا اتقتل ف حادثة، بالصدفة عربية خبطته ف حارة مفيهاش عربيات بتدخل إلا قليل أصلا، الحقنا، الحقنا.

وهنا سمعت صوت جهاز النبضات يعلنها: النهاية، وذهب بلا رجعة، أغمض عينيه وسقطت رأسه الشاحبة المتعبة التي كانت تتحدث بصعوبة، نظرت له وفي عيني شيءٌ من الدموع، لم أتمالك نفسي، بكيت بكاءً شديدًا عليه رغم أنني لم ألتقه إلا خمس دقائق، لم أكن المحظوظ بمعاشرته، ولكن إن كنت عاشرته، فكيف سأتحمل كل آلامه معه دون مساعدة، دون كشف المستور، دون انتقام.

خرجت من المستشفى وأنا أتصل بأحد الشباب في الجريدة انتظرت قليلا حتى رد الهاتف وقلت:

– أيوه يا جمال، اسمعني، في ملف عندك لواحد اسمه محمد فتح الباب، ملف تحريات مكتوب فيه عنوان وكل حاجة، هتروح ع العنوان دا وهتلاقي مفتاح الشقة دي جنب عداد الكهربا،

تروح تجيب ورق من هناك ف الشقة، تقلب الشقة وتجيبه، وتقابلني بكرة قدام النيابة الصبح.

أغلقت الخط، وسرت وحدي شريد الفكر في كل ما يحدث، لم أعِ جميع أحداث ذلك اليوم الذي لا يتقبل، كيف لعقلٍ بشري أن يهديه ليفعل كل هذا، بكل تلك السهولة، لم أعِ بنفسي سوى بسيارة سوداء تقترب مني، نزل منها شابان من أصحاب العضلات بالكيلو، كانا يخطفانني ويحملانني إلى داخل السيارة، حاولت المقاومة ولكن عليَّ الاعتراف بأنني لم أمارس رياضةً في حياتي قط سوى الرماية بالرصاص وحسب، وأنا هنا أعزل.

أدخلوني السيارة، لم أشعرْ إلا بشيء أسود يُوضَع على عينيَّ، ولكن شيئًا ما غريبًا حدث، السيارة لم تتحرك سمعت صوتًا ما، صوتًا أعرفه جيدًا من خطاباته: صاحب الجمل الفذة والكلام البديع الذي ما هو إلا كلام فقط.

– محمد مدين، آخر واحد كان مع محمد ف أوضته، تعرف، في شاب إنت بعته البيت عند محمد، الشاب دا موصلش، ولو وصل المستشفى يبقى خير وبركة، وبجد بشكرك شكرا جزيلا على الورق إللي عرفتنا مكانه، وبشكرك أكتر على خفية التحريات، أما الجرنال اللي بتشتغل فيه أنا اشتريته من ساعتين، وبرفدك منه، غير إن نقيب الصحفيين صاحبي، ومش هتشتغل تاني ف أي جرنال.

صعبان عليك محمد!

– محمود أبو الحمد، سيبك من فسادك، بجد إنت أوسخ شخص قابلته، وإن كنت إنت ولا خطيبتك الدكتورة، ولا صحابك ولا، ولا، هحطكم ف السجن، ف السجن بإيديا دول.

– مش هتلحق، آه نسيت أقولك، أنا فسخت الخطوبة النهارده، وحاجة كمان، الحقنة اللي هتاخدها دي هتخلي محمد يصعب عليك أكتر، من اللي هتشوفه، ومش هتلحق تعمل حاجة غير إنك تموت، تموت وبس.

وفجأةً شعرت بسن الإبرة في يدي، كان هناك شيءٌ يقتحمني، سائلٌ حارقٌ، أتعبني، بدأت أشعر بالدنيا تلف بي، لم أشعرْ بشيءٍ سوى وأنا على الأرض في الشارع، أسير مُنهَكًا متعبًا، رآني أحدهم في شارعنا، طلب رجلًا لإسعافي، اتجهت لمستشفى دار الفؤاد، حتى قابلتها، كانت خطيبته، أو التي كانت خطيبته، دكتورة قمر، كانت في قسم الطوارئ رغم أنه ليس مجالَها، صارحتني بأن هناك تحاليل لا بد من القيام بها.

وبعد فترة وجدت أنني أعاني من السرطان، سرطان الكبد، وأنني في مرحلة لم تتأخر وقد يتم علاجي، ولكن صمامات القلب لن تتحملَ العلاج، وأنني لا بد أن أعالج، فسيصبح على المدى الطويل، مدى طويل من اقترابي منها، ولكنه سيبعدني عن أولادي، ذهبت لهم، أقنعتهم بالاختفاء أوصيتهم بأن ينسوني وإن قابلوني فلا يعرفوني، كنت في حالة جنون تام، ذهبت وجمعت أوراقي، شهاداتي من كلية الطب، وشهادات عملي في قسم الطب الشرعي قبل أن أتركه وأتجه للصحافةِ، ولكن يبدو أنني سأستفيدُ من تلك الكلية أخيرًا، وُلِدَت في داخلي فكرةٌ، فكرة سحبه هنا بهدوء، ولكنني أحتاج بعض الأبحاث، أبحاثًا لتطوير

المرض فيصبح قويًّا، يقهره، يدمره، بعض التفكير، لا بد أن يعاني، إلى ذلك الذي منحني الألم، إلى كل من جعلني أشقى في لحظة، ألا تعرف أن الحزن كان عدوي، الآن هو أعز صديق، ولكنني لا أحب إلا انتشار الصداقات، فانتظر لأنني سأعرفك به، لأنه لن يتركك بسهولة.

والباقي تعلمونه.

بعد مرور عام واحد/ مهرجان الجونة السينمائي

(مدينة الجونة)

تصفيق حاد، حاد للغاية، ربما كان بعضه مجاملةً، والبعض الآخر كان فعلًا يعجبه الفيلم، أو ربما الأغلب، جائزة أفضل مؤلّف في مصر عن فيلمي، صعدت لاستلامها وأنا في قمة سعادتي، توقيت صعب، مررت به بالكثير، ولكن الشكر لتلك الأيام، الشكر لأيام جعلتني أكبر في ميعاد مناسب لمواجهة كل شيءٍ، لكي أكتب، لكي أتحمل كل الكسور والندوب والجروح، لكي أراها، أراها فتجذب أطراف عيني وأجذبها بحديثي على الأوراق، فتسندني في ظروف صعوباتي، وأخطفَها في حضني في ظروف صعوباتها...

في وقت شعرت فيه بالضعفِ جعلتني أملأ الدنيا صراخًا، جعلتني أثبت أنني موجودٌ، جعلتني أستيقظ، أحاول، أحارب، أشعر أن المسرحَ ملكي، أشعر أن الدنيا كلها ملكي، أشعر بأن الحياة ملكي، كنت أراها تقف بين الجميع تصفق بحرارةٍ والدموع في عينيها، بعدما أصبحت زوجتي، يبدو أن الزواجَ لم يكن نهايةَ قصصِ الحب كما توقعت، ولكنه بداية لم أشعرْ بها وبنجاحها إلا وهي جانبي وحسب، وبجانبها يقف سندي، وصديقي، وبجانبه أختي وابنتها الجميلة، لم أنسَ دعمهم لي، ولكن كانت عيوني لها هي، وللجائزة التي حصلتُ عليها بسببها، وأعدها أنني سأحصل عليها العام القادم.

ابتسمت لها ونزلت من المسرح وفي يدي الجائزة، سلمت على كثير من الزملاء والممثلين والمخرجين وسلمت على أختي ويوسف، إلا هي، لم أشعرْ بنفسي إلا وأنا أخطفُها في حضني، كانت السببَ في كل النجاح، في كل الدعم، في كل شيءٍ بعد الله.

أخذتها من يدها واتجهنا إلى إحدى النواحي المطلة على البحر، كانت تقول لي وفي عينيها كل السعادة:

– مبروك يا حبيبي، مبروك بجد.

– تعرفي يا قمر، تعرفي إنك بتفكريني بالكمانجا.

– الكمانجا؟ إشمعنا؟

– كل ما سمعها أفتكرك، رقيقة، قوية، ألحانها حساسة، بيسموها أميرة الآلات زي مانا شايفك ف عيني، أميرة.

لم أشعرْ بها إلا وهي تحضنني، تخطفني أنا أيضًا في حضن أمانها فهمست لي وقالت:

– مش عيب لما أبقى آخر من يعلم.

نظرت لها بتعجب شديد وقلت بابتسامة:

– مش فاهم؟

فنظرت لي، وقالت ونحن نسير معا على البحر:

– بعد ما سلمت قصصك ونجحت كلها، وبعد وفاة عمو محمد الله يرحمه، افتكرت جملة إنك جبت معلومات الطب الشرعي، وبدأت أقرأ كل اللي كتبته، أقوم أكتشف إيه بقا؟

– أيوه إيه بقا؟

قلتها مقلدا لها فضحكت وقالت:

– في ربطة غريبة في القصص، القصص دي كلها متسلسلة ببعض، القصص دي حقيقية؟ صح؟

ضحكت وأنا أنظر لها، قبلتها على جبينتها وقلت في هدوء:

– مش عارف أهرب من ذكائك ازاي؟

– جاوبني بدل ما تهرب عشان أبقى فخورة بنفسي.

– أيوه يا ستي، القصص دي كلها حقيقية، القصص دي حاجات بابا عاشها وشافها وسمع عنها حتى لو هو مش بطلها.

نظرت إليَّ في وضع المفاجأة قليلا وقالت:

– عمو، إزاي دي وظايف مختلفة وناس مختلفة.

رددت مسرعا:

– ومراحل عمرية مختلفة كمان، (حكاية في ميدان القمر) هي حدوتة الحب اللي بجد اللي بابا عاشها زمان قبل ما يتجوز

ماما، كان لسة في الطب الشرعي وفي نفس الوقت عنده هو اية الكتابة، ولحد ما مات معتقدش إنه حب حد زي ما حب الست دي رغم إنه مقعدش معاها أكتر من ساعة، أما (ليل) كان بابا هو شخصية (عزيز شرعي) الطبيب اللي شرح جثة الأم، هو اللي حكالي عن الجريمة دي زمان بعد مالظابط الحقيقي اللي حقق فيها هو اللي قال، أما (مفكرة الأحد عشر)، كان جواب بس الجواب دا كان من الجو ابات اللي جت لبابا لما كان هو صحفي، مش أنا، والأغرب أن بابا كان عارف صاحبة الجواب دا، كان هو جارهم اللي بص عليها وقفلت الستارة عشان ميشوفهاش، والست دي ماتت محروقة في شقتها بالمناسبة، أما (عيار العجوز) كانت حكاية بابا عاشها، بس بابا مكنش البطل، بابا كان زميله اللي سلمله التقارير في الوردية قبل ما يمشي وعرف الحدوتة دي منه قبل مالراجل يستقيل وينتهي ف حياته الحزن، أما (نقطة ضعف) ف دي حكاية حب بابا وماما، ومقابلتهم وحياتهم والمحاضرات اللي حضرهالها وحبها فيها، بابا كان بطل القصة دي، أما (عقد الشراكة) فدي حدوتة بابا عاشها فعلا، أو حسب ما قاله وهو عنده 16 سنة، ويمكن عشان كده بطل يقرا قصص رعب لحد ما مات.

– قصدك بطل يخاف، عشان كده مهموش أي حاجة زي قصة محاق.

– بالظبط.

نظرت لي في انبهار شديد، انبهار بسرد كل ما يحدث، كانت معجبةً بكل ما قلته نظرت لي في سكون وإعجاب وأردفت.

– ياه، كل دي حكايات عاشها عمو، كل دي حكاياته.

– ومين فينا مش حكاية يا حبيبتي، مفيش بني آدم مش حكاية، دا إحنا بديع خلق الرحمن.

– طب و انت حكايتك فين؟

– إنتي، إنتي حكايتي اللي ابتديتها، ومش حابب أنهيها وحابب أكملها معاكي وأطول في فصولها لحد ماموت، إنتي الحكاية اللي مبتتنهيش واللي مبيتشبعش منها مهما طالت فصولها.

ومن هنا احتضنتني بشكل رومانسي، بشكل يشعرني بالأمان، والحب، بشكل جعلني أشعر بكل شيءٍ كنت افتقده قبلها، وكان مناسبًا للغاية عندما سمعت صوت مقدمةِ المهرجان في الميكروفون فنظرتُ لقمر وقلت لها:

– عايزك تسمعي اللي هيتقال ع المسرح دلوقتي حالا.

قلتها فبدأنا التركيز فقالت مقدمة المهرجان فوق المسرح:

– معانا دلوقتي رسالة، كتبها المؤلف يس مدين لزوجته، الرسالة مؤثرة أوي، أصر إنها تسمعها بس وهي جنبه، بيقول فيها:

«إلى كماني وكمالي وجمالي واكتمالي وسبب جمال أعمالي، إلى سكني وسكينتي وسكوني ومسكني وساكنتي وسكناي وسكوتي وسكتي وسكرتي، كانت الحياة قبلك بلا حياة، وبكِ كل الحياة، وبعدك لا توجد حياة، كنت بدونك كتائه لا يصدق بوجود الخرائط، كميت في ملابس حي، حتى أتيت أنت فغيرتِ كل شيء، كنت الداعمة والكاملة والكامنة في مشاعري، كنت كل شيء، وبك أصبحت كل شيءٍ، شعرت معك أنني أملك كل الحياة، وأنني بدونك لا أملك شيئا، وكأن شيئا لم يكن، وكأن شيئًا لن يكون إلا بك... أحبك».

رأيت عينيها، كانت تدمع، كانت سعيدة، وجدتها تنظر إليَّ، فعانقتها، اختطفتها، وقبلتها، أعتقد أن الأضواء لم تكن ترانا، ولم يكن الجميع يشعر بنا، وكأن هناك كونًا خاصًّا بنا، كونًا لي ولها وحسب، دنيا أنشأناها، دنيا بديعة دنيا بدونها لا شيء، دنيا ما زالت تملك الكثير معها وستظل.

❁❁❁❁❁❁

(تمت بحمد الله)

شكر خاص لـ...

فريق العمل في الرواية، وأصحاب الفضل في صدورها بهذا الشكل: [شعنونتي، أحمد مصطفى، رنا ناصر، هنا شريف، ندى بهجت، محمد سيد الشيخ، يوسف بومدين، محمد شيحه، داليا قشطة، سلمى أسامة، جمال خالد (دولسيكا)].

الأصدقاء: [يحيي سرحان، عمرو ماهر، محمد ممدوح، محمود أبو الحمد، يوسف مختار، أحمد عادل، محمد زنقور، محمد عادل فوزي، حسين الرشيدي، هبة عادل، دينا ونس، إيمي طارق، مريم المصري، جهاد عصام، سلمى حسام، مها لطفي، مارسيل نجيب، ماجدولين مجدي، ياسمين مبارك، أحمد سليم، محمد أسامة، عبد الله الجندي، مؤمن إسماعيل، ميادة محمد، مريم شيربيني، كيرلس إدوارد، حمزة الخطيب، محمد أشرف، مينا عازر، محمد البرعي، كيرلس سامي، ميشيل وقيم، ندى عبد الرحمن، نادين الجندي، نادين هشام، ندى شكري، نادين مجدي، شهد السلاموني، نسمة أشرف، ديما السيد، مجدي كامل].

فريق صرخة فزع.

جروب لايلو لايلو.

الكاتب في سطور

عبد الرحمن بومدين، طالب بكلية طب الفم والأسنان، من مواليد القاهرة – مدينة السيدة زينب

أعماله:

1) نُشِر له عام 2018 رواية (130). / دار حسناء للنشر والتوزيع.

2) نُشِر له عام 2017 رواية (داليدا). / نشر إلكتروني.

3) عضو من أعضاء فريق صرخة فزع، وشارك معهم في العدد الثالث، وبصدد المشاركة في العدد الرابع.

4) شارك في العديد من الأعمال الجماعية مع العديد من دور النشر.

إنجازاته:

1) تم ترشيحه من جامعة بدر للمشاركة في مسابقة إبداع 6 على مستوى الجمهورية برواية داليدا عام 2017.

2) تم ترشيح روايته (130) للقائمة القصيرة لأفضل أعمال مسابقة إبداع 7 المكونة من 10 روايات على مستوى جامعات ومعاهد الجمهورية.

3) تم اختياره كعضو لجنة تحكيم من الجمعية العلمية لطب الأسنان (EADS) في اليوم الأدبي الثقافي بجامعة بدر.

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com